مذكرات احمد بابي

مقدمة

يعتبر الحاج أحمد ، باي قسنطينة الاخير ، من ألمع وجوه المقاومة في الجزائر ، ومن أكبر قادتنا الذين دوخوا فرنسا ، والذين يجب أن نفتخر بهم .

لقد اعترف له كثير من الجنرالات بالدهاء العسكري ، وحاول المارشال فالي أن يتفق معه ، اقتناعا منه بأن الرجل أهل للقيادة ولا يمكن أن يستسلم بسهولة .

واذا كان المؤرخون الغربيون لم يعطوا له حقه ، قاصدين بذلك تشويه التاريخ الجزائري المجيد ، والتمييز بين مختلف عناصر الشعب للتقليل من أمجاد ماضينا الحافل بعوامل الامل ، ودوافع الايمان بالمستقبل ، فان واجبنا نحن أن نزيل الغبار على هذه الشخصية ، وغيزها من أمثال ابن سالم ، ابن علال ، حمدان خوجة ، بومرزاق ،بومعزة بوبغلة ، بوعمامة ، محمد الصغير بن أحمد بن الحاج ، بوزيان الخ .. ونخرج من طيات النسيان تلك الصفحات الخالدة التي كتبوها بدمائهم ، لنستوحي منها طريقنا نحو حياة أفضل .

لقد كان الحاج أحمد كرغليا ، على حد تعبير المؤرخين الفرنسيين . ولكن المنطق يحتم علينا أن نؤكد عكس ذلك ، انه جزائري قبل كل شيء : ولد في الجزائر من أب ولد في الجزائر . زد على ذلك فهو ذلك الرجل الذي وهب حياته لهذا الوطن ولا يعرف وطنا سواه

واذا سلمنا لهؤلاء المؤرخين بأن أحمد لم يكن جزائريا ، فماذا نقول عن بونبرت الذي جاء الى فرنسا من جزيرة كورسكة ؟ وماذا نقول عن الامراء الفرنسيين الذين ينحدرون من سلالة بريطانية ؟ وماذا نقول ، أيضا ، عن أباطرة روما العرب والافارقة ؟ .

واذا اردنا نحن ان نجرد احمد من الجنسية الجزائرية يجب ، قبل ذلك ، ان نطرح على انفسنا السؤال التالي : لماذا اعطيت الجنسية الجزائرية لكل من طلبها ممن انخرط من الاجانب في صفوف جيش أو جبهة التحرير الوطني اثناء ثورة نوفمبر 1954 ؟ هذا بالاضافة الى انه لا مجال للمقارنة بين احمد وهؤلاء ، لان الباي لم تكن له جنسية اخرى ، ولا لغة ، ولا تقاليد ، ولا عادات ، ولا اخلاق ، غير جنسية الجزائريين ولغتهم ، وتقاليدهم ، واخلاقهم .

اما عن حياته ، فان السيد احمد بوضربة ، عندما قدم مذكراته الى اللجنة الافريقية سنة 1833 ، يذكر بأن الباي كان يبلغ من العمر فى ذلك الوقت 47 سنة ، الامر الذي يجعلنا نحدد تاريخ ازدياده بعام 1786 . وقد كان يسمى باسم امه ، فيقال الحاج احمد بن الحاجة شريفة . وهي من أسرة ابن قانة المعروفة فى الصحراء . أبوه هو محمد الشريف خليفة حسن باي الذي تولى الحكم بعد صالح باي المتوفى سنة 1792 . واما جده فهو الباي أحمد القلي الذي حكم قسنطينة مدة ست عشرة سنة ابتداها عام 1755 ، والذي يقول عنه الحاج احمد المبارك فى « تاريخ حاضرة قسنطينة » انه رجل عاقل صالح عالم بتسيير شؤون البلاد .

وقد نشأ احمد فى بيت اخواله ، فشب على حياة البداوة، وتعلم الفروسية ، وتدرب على القتال ، فكان رجلا حاسما وشجاعا لا يعرف التردد عندما يجب الفصل فى القضايا .

وان هذه الصفات الخليقة بكل مسؤول ، هي التي جعلت الايالة تعينه ، وهو لم يتجاوز الثلاثين خليفة لباي قسنطينة التي هي أكبر المقاطعات فى الجزائر وأهمها من جميع النواحي.

ولقد ظهر أحمد ، أثناء ممارسته هذه المسؤولية الجبارة، مهارة كبيرة وخبرة واسعة فى اكتساب ثقة الاهالي وضمان تعاونهم معه ، بحيث انه ، عندما وقع الخلاف بينه وبين رئيسه ، وأمر هذا الاخير بحبسه ، وجدناه يحظى بمساعدة اعيان المدينة والبايلك بصفة عامة لمغادرة المكان والتوجه الى العاصمة بسلام .

وفى منفاه ، ظل الباي متمسكا بسيرته الاولى ، فكان يبرهن على شجاعته وتفانيه كل ما دعي للمساهمة فى عمل من الاعمال . وفى البليدة ، استطاع نأ يثير اعجاب يحي آغة باستقامته واخلاصه ، وانقلب هذا الاعجاب محبة بعد تجارب طويلة ، وخاصة بعد الدور الذي لعبه أحمد أثناء الزلزال الذي اصاب البليدة سنة 1825 . ولذلك رأينا الآغة ، صاحب النفوذ والسلطان فى ذلك الحين يتدخل لدى الداي ، ويحصل للحاج على العفو فى مرحلة أولى ، ثم على البايلك فى مرحلة ثانية سنة 1826 .

هكذا ، حصل أحمد على هذا المنصب باستحقاق . وبمجرد ما تسلم مسؤوليته الجديدة شرع فى تنظيم الامور والقضاء على الفوضى . وتبين من خلال هذه الاعمال أنه قائد مقتدر له من الدهاء العسكري والسياسي ما لم يتوفر لسابقيه . ولذلك تمكن من البقاء اثنتين وعشرين سنة على الرغم من المشاكل والمحن ، ومن المجهودات والتضحيات التي بذلتها فرنسا للقضاء عليه .

هذا ، واننا سنفرد للحاج أحمد دراسة مستقلة فى وقت لاحق . أما اليوم ، فاننا ننشر مذكراته التي يجمع المؤرخون على ان لها قيمة تاريخية كبرى . ولقد سبق أن نشرها

بالفرنسية وعلق عليها السيد مارسال أمريت فى المجلة الافريقية الصادرة سنة 1949 . ورجعنا الى المخطوطات الوطنية فى باريس ، فوجدنا ان هناك نسختين من هذه المذكرات مكتوبتين باللغة الفرنسية، وان هناك بعض الاختلاف بينهما من حيث الشكل لا من حيث المضمون ، الامر الذي جعلنا نتأكد من ان المذكرات انما كتبت فى أصلها بالعربية ، وترجمها شخصان مختلفان . ولكن الترجمة التي نشرها أمريت هي الاتم على ما نعتقد . ولذلك لجأنا اليها لنعيد المذكرات الى لغتها الاصلية .. وما لجأنا الى ذلك الا بعد أن يئسنا من وجود الاصل العربي .

المترجم

باريس 14 نوفمبر 1971

مذكرات احمد باي

في سنة 1830 ذهبت الى مدينة الجزائر لاداء الدنوش أو الزيارة الاجبارية التي يؤديها الى الباشا جميع البايات مرة كل ثلاث سنوات . كنت بايا لقسنطينة منذ أربعة أعوام ، وكانت تلك هي المرة الثانية التي أقوم بهذا الواجب . فلم أكن اذن ، مستعدا أي استعداد لمحاربة الفرنسيين ، ومع ذلك كان الداي حسين قد أخبرني بمشاريعهم في رسالة ذكر لي فيها انه يجب أن أهتم بعنابة فقط . ولم يكن قلقا لا على نفسه ولا على مدينته الرئيسية . وهكذا ، جئت كالعادة أحمل « اللازمة » ومعي أربعمائة فارس أو أقل ، وأذكر من جملة القادة الذين اصطحبوني : ولد مقران ، ابن حملاوي آغا ، شيخ النغاس ، قائد الزمالة ، الوردي قائد بن عاشور ، وشيخ بوشناح .

وعندما حضرت بين يدي الباشا قال لي : « ليس لديكم أكثر من الوقت الكافي للخروج الى الفرنسيين الذين سينزلون بسيدي فرج ، انني أعرف مكان النزول من الرسائل التي تصلني من بلادهم ومن كتاب طبع في فرنسا وأرسله لي جواسيسي من مالطة وجبل طارق » ثم أضاف بأن الرسائل ترد اليه باستمرار من فرنسا وانه على علم بكل ما يجري هناك .

غادرت مدينة الجزائر بسرعة ، واتجهت الى المكان الذي تجمع فيه الجيش . وعقدنا مجلسا لتحديد خطتنا فى الدفاع عن البلاد ، وشارك معي فى هذا المجلس الآغا ابراهيم ، صهر الداي ، ومصطفى باي التيطري ، وخوجة الخيل ، وخليفة باي الغرب .

وقعت الندوة في مكان قريب من سيدي فرج.وابتدأ صهر الداي هكذا :«يجب بناء حصون على شاطيء البحر، وتزويدها بمدافع قوية حتى نمنع الفرنسيين من النزول . »

وأجبت بأن هذا الرأي سديد ، ولكننا لا نستطيع العمل به حينا ، كما تقترحون ذلك ، لانكم لا تملكون الوسائل التي تمكنكم بسرعة من اقامة الحصون التي أشرتم اليها وبالفعل فكيف تحملون الى هنا المدافع والذخائر الحربية التي تحتاجون اليها وليس فى سيدي فرج سوى قلعة قديمة مخربة يحتاج اصلاحها الى شهور كاملة . لقد استيقظتم متأخرين، وفى نظري ، اذن فانه لا ينبغي أن تنهكوا أنفسكم لصد نزول الفرنسيين ، ومن المستحسن أن تبدوا بعض المقاومة وتهاجموهم بحيث تعرقلون النزول . ولكننا اذا وضعنا كل أملنا فى اقامة التراسين والحصون ، فانكم لن تنتصروا ، لان نيران المراكب الفرنسية ستقضي على هذه

المنجزات المقامة بسرعة وتكون أعمالكم قد ذهبت سدى . ثم انكم لن تتمكنوا من تسليح الحصون دون تعرية مدينة الجزائر التي ينبغي أن تهتموا كل الاهتمام بالدفاع عنها .

واذا استطعنا أن نفسد مشروع الفرنسيين بواسطة المعركة الصغيرة التي سنشنها عليهم أثناء النزول ، فاننا نحمد الله ونشكره على مؤازرته لنا . واذا لم تتمكن من التصدي لنزولهم ، فانه يجب على الجيش أن ينسحب الى مؤخرة جيوش الاعداء ثم نشطأ البحر من الجهة الغربية .

وتذكروا شيئا ، فان الفرنسيين يريدون انهاء هذه الحرب بكل سرعة ، وارجاع الجيش الى أوروبا . انهم من بني الاصفر ، ذوي الوجوه الشاحبة الذين يصعب عليهم تحمل مناخ هذه البلاد . وعندما نمدد الحرب في الزمن ، فمعنى ذلك اننا سنحقق النصر لا محالة . وسيصيب أعداءنا ما أصاب جميع الذين نزلوا هنا : ان الله كان دائما بجانب المؤمنين على الكافرين الذين يأتون لمهاجمة المدينة الموضوعة تحت حمايته ، وهذه المرة أيضا ، فانه لن يتخلى عنا .

ولاحظوا ان الفرنسيين لن يلحقوا ضررا كبيرا بالمناطق التي سيمرون بها لان أراضيها تكاد تكون غير مزروعة ، وليس فيها الا عدد قليل من المساكن والاجنة .

واذا وثقتم بي واتبعتم خطتي ، فاننا نتجه الى وادي مازفران ، وعندها يقع أحد أمرين : اما أن يهاجم الفرنسيون مدينة الجزائر واما أن يسيروا نحونا . ففي الحالة الاولى ننقض على مؤخرتهم فنأخذ مؤونتهم ، ونهاجم قوافلهم فنقتل المتخلفين ونعمل على قطع الاتصال بينهم وبين مراكبهم، وهذه النقطة الاخيرة سهلة جدا لان البحر يتغير ولا يسمح دائما بالنزول . أما اذا ساروا نحونا ليشنوا علينا الحرب ، فان واجبنا هو أن نتجنب المعركة ونجر جيوشهم الى ميدان ملائم وبعيد عن مدينة الجزائر التي هي هدف مشروعهم.

وانكم لا تجهلون كم سيفقد الفرنسيون من الجنود ، أثناء ملاحقتهم لنا ، نتيجة للحرارة ، وفقدان الماء وانعدام العديد من الاشياء الاخرى التي تعودوا بها والتي لا يمكن أن تتسع لها مراكبهم ، هذا بالاضافة الى اننا نكون قد حافظنا على مدينة الجزائر . اذن ، فرأيي هو الرجوع الى الوراء . »

وأجاب صهر الباشا بحمية جاهلية وثقة مزهوة فى نجاح الخطة ، بأن عدم مجابهة العدو ليس من عمل الرجال الشهام ، وان الله لن يغفل عن مساعدة من سيهاجمون الكفرة عند نزولهم وهم به واثقون .

وأثر هذا اللجوء الى الله تأثيرا كبيرا على عقول الحاضرين . واستعملت نفس الوسيلة وأردت حملهم على أن يتركوا مدينة الجزائر تحت رعاية الاله يفعل بها ما يشاء ولكنهم عارضوني وتقرر أن يسيروا لمجابهة الفرنسيين.

وهكذا ، شرع فى بناء المتاريس بسيدي فرج ، ولكنها لم تسلح الا بمدافع خفيفة لعدم وجود العربات التي يمكن أن تحمل المدافع ذات العيار الكبير . وتم النزول ، وبعد انتصار الفرنسيين على مقاومتنا ، تقرر التراجع وانتظارهم فى سهل سطاولي حيث بنينا حصونا بسرعة وزودناها ببعض المدافع . وكان الباشا قد وزع عددا منها كذلك على جميع الاعيان الذين كانوا يقودون الجيش وعلى من كانوا مثلي قادمين من مناطق بعيدة . وقد خسرنا هذه المدافع فى معركة سطاويلي التي ربحها الفرنسيون . وكان مدفعي قد سقط مرة أولى بين أيديهم ، ولكنني جمعت فرساني وهاجمنا فخسرنا أكثر من مائتي جندي ، ولكن الله مكنني من الانسحاب ومعي المدفع الذي أعطيت .

وبعد معركة سطاويلي ، هاجم الفرنسيون برج مولاي حسان . وكنت اذ ذاك قد انسحبت الى المكان المسمى

بوادي القليعة (1) وسقط البرج خرابا بفعل البارود ، ثم استسلم الباشا للفرنسيين الذين دخلوا من غدهم مدينة الجزائر . عندئذ ، انسحبت مع فرساني الى عين الرباط (مصطفى باشا) ، وواصلت سيري نحو جنان الباشا (2) حيث لحق بي جميع الهاربين . فأصبح معي 1600 شخص وفى مساء يوم الاحتلال انسحبت الى قنطرة الحراش حيث قضيت الليلة على الضفة الاخرى من الوادي . وفى الغد توجهت الى الخميس (3) وعسكرت فى الفندق . (4) وفى أثناء الليل وقع انذار وأعلن عن ظهور طلائع الجيش الفرنسى. فركبت حصاني على الفور واصطحبت أربعين من فرساني ، ولكن الانذار كان خطأ . وواصلت طريقي ، وعندما بلغت أولاد زيتون اتصلت برسالة من الجنرال الفرنسي المسمى بورمون . (5)

(1) ــ هو الوادى الذى يأخذ منبعه من باب البحر ويشق بوفريزي ثم الابيار ليصب فى وادي مازفران

(2) ــ هو مستشفى مايو حاليا .

(3) ــ المقصود هو خميس الخشنة على بعد حوالى 30 كلم شرقى مدينة الجزائر .

(4) ــ قرية صغيرة على بعد حوالى 25 كلم من مدينة الخميس الآنفة الذكر .

(5) ــ هو دوبرمون ، قائد الحملة العسكرية ضد الجزائر ، وصاحب معاهدة 5 جوليت .

يقول لي بورمون ، فى رسالته : ان الفرنسيين قد خلفوا حسين باشا فى الحكم ، وانني احتفظ بمرتبة باي قسنطينة اذا رضيت أن أدفع لفرنسا « اللازمة » التي كنت أدفعها للداي ، وباختصار اذا قبلت الاستسلام .

وأجبت بأن السلطة تسلمتها من حسين برضا جميع سكان قسنطينة ومقاطعتها وانني راجع الى مركز قيادتي ، واذا كانت ارادة قادة قسنطينة تتفق مع رغبة الجنرال الفرنسي ، فانني سأخضع لها بكل سرور .

انتهت هذه المفاوضات عند هذا الحد ، وتوجهت الى قسنطينة عن طريق الاعمال والبيبان ، ثم بلغت منطقة العوامر بالقرب من سطيف وبعد 22 يوما من السير ، منذ أن غادرت مدينة الجزائر ، وصلت الى المكان الذي يسمى الحامة (6) بنواحي قسنطينة .

فى أثناء غيابي عن قسنطينة دبرت مؤامرة ضدي . لقد تركت فى المدينة حامية الشتاء وهي مكونة من الاتراك

(6) قرية على بعد 7 كلم شمال قسنطينة ، تدعى الآن حامة بوزيان .

واليولداش (7) . فأراد هؤلاء الاجناد أن يقلدوا ما كان قد جرى فى مدينة الجزائر ، وأعلنوا انهم لم يعودوا يعترفون بي كباي وعينوا مكاني القائد سليمان ، الباي الذي قاد المؤامرة بمساعدة خليفته ولد شكال محمود ، وعبد الله خوجة وسطامبولي وجيمي علي ووزان أحمد وزميرلي بشير وضبيات علي .

وعندما علم هؤلاء الناس بمقدمي ، أرادوا أن يثيروا علي القبائل المقيمة فى نواحي سطيف ولكنني هزمت من خرج الي وقصدت قسنطينة التي غادرها المتآمرون ليعترضوا سبيلي ، وبمجرد ما خرجوا من المدينة اجتمع الطلبة والسكان بسرعة تحت قيادة الباشاحمبا كيمان بن عيسى وألقوا القبض على سليمان وقتلوه أمام باب المدينة . وهكذا

(7) ـ كان اليولداش لا يخضعون الى القانون ، والداي وحده هو الذي له الحق فى محاكمتهم ، وكل من التجأ الى مقهاهم ينجو من كل سوء . وكان ذلك يحدث بلبلة كثيرا ما يشتكي منها البايات الى صاحب أمرهم (انظر رسالة احمد باي بخط يده فى المحفوظات الوطنية بباريس ف .8 ، 1673) .

لم ألاق أي عناء لاسترجاع سلطاني (8) ، ولكنني أردت أن أضرب مثلا ، فوضعت يدي على المجرمين ، ووفقا للقانون حكمت عليهم بالاعدام ونفذت الحكم فيهم . وبعد ذلك قررت أن أضع حدا للمناورات المستمرة التي يقوم بها الاتراك واليولداش (9) وخشي الكثير منهم نقمتي العادلة فالتجأوا الى العرب . فكتبت الى كل الجهات أقول : « تحللوا من هؤلاء الاجانب الذين لا يحملون اليكم سوى البلبلة ويمنعون الحاكم من أن يحقق الخير الذي يريده لكم . » ووجدت هذه الكلمات آذانا صاغية فدفع كثير من اليولداش ثمن الطغيان الذي فرضوه على البلاد زمنا طويلا .

(8) ـ يزعم ابن قانه أن الفضل يعود اليه فى التغلب على هذه الصعوبات (كتاب بوعزيز بن قانه ، لصاحبه ، ص : 38) . وكتب صالح العنتري (ص : 55) ان الشيخ لفغون هو الذي تزعم الحركة المساندة الباي .

(9) ـ يشير صالح العنتري (نفس المصدر) الى أن الباي وضع حدا لتعسفات الاتراك ، وذلك عندما كون جيشا من القبائل .

وبمجرد ما رجعت الى الحكم ، اتصلت ، من مدينة الجزائر ، برسالة كتبها الجنرال الذي يسمى كلوزال . (10) فعرض علي هو أيضا ، الاعتراف بي كباي على قسنطينة ولكن شريطة أن أدفع اللازمة وقال بأنه سيرسل لي ، عندما أستسلم ، قفطان الشرف باسم ملك الفرنسيين .

وفى الحين جمعت الديوان وقرأت عليه رسالة الجنرال . فكان رد الاعضاء ان قسنطينة كانت فى الحقيقة تابعة لباشا الجزائر وتمتثل لاوامره ، ولكن الجزائر ، بدورها ، كانت تابعة لسلطان اسطمبول : ولقبول الصلح المقترح علي يجب، أولا أن أحصل على موافقته ، والاجابة الوحيدة هي أن نخبر الفرنسيين بأننا نستشير السلطان ثم نرفع الارادة السنية بكل سرعة الى الجنرال .

كان الديوان يحمل بغضا شديدا للفرنسيين ، ولم يكن الغرض من الاجابة التي نصحت بتقديمها لهم سوى تمديد المفاوضات واطالتها ، ومنع البلاد من أن تتعرض لمصائب جديدة نتيجة رفض عنيف .

(10) ـ هو المارشال الذي يحكم الجزائر سنة 1830 ، ثم تولى قيادة جيش افريقية من سنة 1835 الى سنة 1836 (ولد سنة 1772 وتوفي سنة 1842) .

وأجبت كما أشار علي الديوان بذلك ، وبعد وقت قصير علمت ان الجنرال الذي كان يحكم الجزائر أمــر بعزلي ، وأبرم فى هذا الموضوع عهدا مع باي تونس . وينص هذا العهد على ان قسنطينة تكون تابعة لتونـــس ، وان سي مصطفى أخا العاهل التونسي هو الذي يتقلد مرتبة الباي فيهــا . (11)

ولم يكن لهذا العهد أي مفعول ، بل انه ظل مجهولا من جزء كبير من السكان وبعد مدة قليلة من ابرام هـــذا العهد ، وردت رسائل من تونس الى مقاطعة قسنطينـــة ، وحمل الى عدد منها . انها من الباي ، وتقول ان قسنطينة كانت فى الازمنة الغابرة جزءا من مملكة تونس . وتقول أيضا ان الباي يعتزم استرجاع الوضع القديم ، واستبدالي بأخيه أو بأي خليفة آخر يختاره وقد لاحظت ان هـــذه الرسائل لا تتكلم عن الفرنسيين أبدا . وكنت ممثلا فيها

(11) ــ المقصود هي معاهدة 18 ديسمبر 1830 التي لم توقع عليها الحكومة الفرنسية .

كرجل مستبد وكانت نهايتها دعوة الى الثورة حتى أطرد من بايلك قسنطينة . (12)

وحينما أطلعت على محتوى هذه الرسائل قلت : اذا كان مثل هذا التغيير بارادة من الله ومن شأنه أن يساهم فى اسعاد الجميع ، فانني مستعـــد لقبوله . ثم أردت أن أعرف رأي الديوان فى هذا الموضوع فجمعته وعرضت عليه ادعاءات الباي الواردة فى الرسائل التي تكاثر عددها فى كل مكان وبعد تفكير وتدبير فيما ينبغي فعله فى هذه الظروف ، تقرر ان يكتب الديوان رسالة الى باي تونس ، فكانت كما يلي :

ان ما تقترحونه علينا لا يليق بنا مطلقا . اننا فرحون بحكم الباي أحمد ولا نريد استبداله . فكيف يمكن لكم أن ترغمونا على ذلك ألستـــم مثلنـــا ، تابعـــين لخليفـــة اسطمبول وبأي عنوان تطالبوننا بالطاعـــة ان السلطـــان محمود وحده هو الذي يستطيع أن يقرر تقسيم أملاكه ، ولو اننا دعينا الى اختيار سيد غـــير السلطـــان الشرعي ،

(12) ــ كتب بارتوزين رسالة الى المارشال سولت يـــوم 1831/2/21 يقول فيها بأن ذلـــك كان نتيجـــة مؤامـــرة دبرها صهر أحمد مع باي تونس .

فاننا ، وبكل صراحة ، سنفضل احتلال الفرنسيين ، لا حبا في الكافرين ولكن لاننا نعلم بأن جوارهم سيجر لنا الحرب ان آجلا أو عاجلا ولاننا سنتعرض لهجوماتهم ولن تستطيعوا شيئا « لحمايتنا . »

وقد وقعت هذه الاجابة عندما تأثر سكان قسنطينة من مزاعم الباي ، كما تأثر الديوان من قبلهم وجاؤوني يقولون : انظر هذا ملك تونس ، وهو ندلك قد تلقب بالباشا فلابد أن تفعل مثله في اللقب وأن تضرب النقود على غراره فأرغمت على اتباع نصائحهم وعينت ابن عيسى خزناجيا وأمينا للسكة التي ضربت ، كما هي العادة ، باسم سلطان القسنطينية ثم قررت أن أحيط علما بكل ما جرى ، من كنت أرى فيه سيدا لي وهو السلطان محمود رحمه الله .

واغتاظ باي تونس من الرفض الذي لاقاه في قسنطينة، فكتب الى اسطمبول يحرض علي ويتهمني بالطغيان . ويقول بأنني أثرت حقد جميع رعيتي . لقد علمت بذلك وعزمت أن أحارب الادعاءات الكاذبة بلائحة يمضيها أهم القادة في مقاطعة قسنطينة . وضمنت رسالتي كل ما دار في الديوان بهذا الشأن وكذلك الرأي الذي تم التوصل

اليه ، وختاما قلت : انك الآن تعرف كل شيء وأنت صاحب الامر ، فانني أنتظر قرارك » . ثم رجوته أن يرشدني الى الطريق الذي يجب اتباعه . وكان كل من حضر قراءة هذه الرسالة موافقا على مضمونها فوضعت عليها خاتمي ووضع الاعيان خواتمهم ثم ذيلوها بملاحق تعبر عن رأيهم فى حكمي وعينوا واحدا منهم ينقلها الى سيدنا ومولانا ويؤكد له ما احتوت عليه .

وكان سي علي بن العجوز ، أحد أعيان قسنطينة ، هو الذي كلف بأداء هذه المهمة ، فأوفدت معه واحدا من عمالي ، يدعى الحاج مصطفى .

ومضت أربعة أشهر قبل رجوعهما ، وفى هذه الفترة من الزمن وقع ما وقع من الاحداث الهامة التي يضطرني سردها الى الرجوع الى ما قبل الاحداث التي ذكرتها الآن .

3

كان مصطفى بومزراق بايا للتيطري (13) عندما استولى

(13) ــ يقول أوكاتبان وفيدرمان فى « مذكرة حول تاريخ وادارة بايلك التيطري » ، المجلة الافريقية ج 9 ، 1865 ، ص : 927 : ان بومزراق حكم التيطري من سنة 1819 الى سنة 183. ، وقد كان جنديا باسلاونشيطا ، لعب دورا كبيرا فى معركة سطاولي .

الفرنسيون على الجزائر ، فحاول أن يربط علاقات معهم للاحتفاظ بالسلطة ولكنه لما لم يتمكن من أن يعتمد لديهم أراد أن يستقل وتلقب بالباشا ثم كتب لي يقول بأن علي طاعته ودفع اللازمة اليه ، ومقابل ذلك يبعث لي قفطان الملك . فأجبت رسوله بقولي: « كيف! بالامس،كان مصطفى بايا مثلي ، واليوم ينتصب باشا من تلقاء نفسه فما عليه الا أن يأتي ليأخذ الاعتراف فليس عندي له اجابة والبارود وحده الذي يفصل بيننا . »

وأمام هذه الاجابة اندفع بومزراق فى حمقه وأعلن انه يعزلني وعين مكاني ابراهيم الذي كان بايا لقسنطينة فى السابق والذي كان الداي حسين قد عزله . ولمحاربتي تحالف ابراهيم هذا مع فرحات بن سعيد (14) ، شيخ العرب السابق الذي استبدلته مؤخرا بقريبي بوعزيز بن

(14) ـ ابراهيم باي هو الذي عين فرحات بن سعيد فى منصب شيخ العرب ، بعد أن أرغم ابن قانه علي اخلائه والتنازل عنه . وكان طموحا وفوضويا ، ثار سنة 1821 ، لكنه سومح وظل يمارس سلطة كبيرة فى الجنوب (مارسي ، تاريخ قسنطينة ، ص : 357) .

قانة (15) وهكذا أراد مصطفى أن يثير ضدي طموح الاول الزائف وغيظ الآخر المكين .

وقام ابراهيم وفرحات باعلان الحرب علي ، فوجهت لهما بوعزيز وبعض الجند ثم انتقلت للقائهما شخصيا ، فهزمتهما هزيمة شنعاء وأرغمتهما على الفرار (16) . أما فرحات ، فقد انسحب الى أولاد جلال حيث راح يواصل معاداته لي ، وظل يمارس نوعا من السلطة على قبائل وادي جدي .

وأما ابراهيم ، فانه تمكن من اللجوء الى تونس وبعد ذلك رجع الى عنابة ، فبدأ أولا وكأنه ارتبط ارتباطا متينا بالفرنسيين الذين لم يكن وضعهم فيها قد تعزز حينئذ . الا أنه سرعان ما راح يحث همم المسلمين ، ويؤلبهم ضد الكافرين وثور السكان ، فأرغموا الفرنسيين على مغادرة المدينة ، واستقر هو فى قصبة الساحة المشرفة

---

(15) ـ لقد ظل التنافس قائما بين عائلتي بوعكاز وابن قانه يدمي الجنوب ردحا طويلا من الزمن .

(16) ـ يذكر صالح العنتري أن أحمد باي قام بحملتين ضد ابراهيم ، أحداهما فى ناحية سطيف والاخرى فى الصحراء . واننا لنجد فى كتاب بوعزيز المذكور ، ص : 41 وصفا مطنبا للعمليات التي جرت فى الصحراء .

عليها . وكانت مجاورة هذا العدو خطرا شديدا على سلطاني ، فأرسلت ضده ابن عيسى ، باش حمبايا (17) فحاصر عنابة من جميع نواحيها واستطاع أن يدخل المدينة (18) وأجبر ابراهيم على الانحباس فى القصبة (19) وبما ان المؤن لم تعد تصل اليه ، كاد أن يرغم على الاستسلام لو لم تأت ظروف مكننته الفرار من القصبة .

ولم يفقد الفرنسيون أمل استرجاع عنابة التي طردوا منها . فأرسلوا الى الميناء باخرتين محملتين بالجيوش تحت قيادة ضابط اسمه دارماندي واستغلت هذه الجيوش الفرصة فنزلت على الشاطيء . وقد بقيت أذكر اسم هذا الضابط لان ابن عيسى ، خليفتي ، كان قد أقام معه بعض

(17) ـ يذكر صالح العنتري ان قيادة الجيش اعطيت اولا لعمار بن زقوطة ، ولما أن الباي كان يعرف أنه مصاب بمرض خطير أمره بالرجوع الى قسنطينة واسند القيادة لابن عيسى .

(18) ـ كان ذلك يوم 5 مارس سنة 1832 (فيرو ، وثائق لكتابة تاريخ عنابة ، المجلة الافريقية ، ج 17 ، ص : 4) .

(19) ـ نفس المصدر يؤكد هذا القول .

العلاقات (20) ووجد ابراهيم نفسه بين استعدادات الفرنسيين المهددة بالخطر ، وهجومات ابن عيسى ، فلم يجد مسلكا آخر غير طريق الفرار ، فغادر القصبة خفية بينما انضم من تركهم فيها الى السيد دارماندي ، والمدعو يوسف المملوك الذي قدم من تونس والذي سيلعب دورا فى البلاد .

وفى هذه الاثناء ، وبينما كان ابن عيسى قد اقترب من القلعة ، تأهبا منه للاستفادة من فرار ابراهيم ، رأى ان الجيوش الفرنسية نزلت من مراكبها متوجهة الى القصبة . وساعدها المحتبسون فىهذهالاخيرة فتسلقت الحيطان (21) واعتقد ابن عيسى ان لا طائلة فى مواصلة هجومه على الحين وجهت حملة ضده ، وتم نفيه بعد أن ألقى عليه القبض . والتجأ الي ابن عدوي : سي احمد ولد بومزراق فنسيت أخطاء أبيه وازدهائه وعينته خليفة لي ، واخترته ليكون صهري لكنه خان ثقتي . لقد كان بناحية الحمزة

---

(20) ــ أنظر دارمندي الى الدوق دوروفكو ، عنابة 5 افريل سنة 1832 نشره آسكار ضمن « مراسلات دوروفكو » ج 3 ، ص : 182 .
(21) ــ كان ذلك يوم 17 مارس 1832 ، نفس المصدر ، ص : 187 .

عندما ترك مركزه ذات يوم ، وأخذ معه مبلغا من الاموال ونهب من كانوا أشد ارتباطا بي ، ثم لجأ الى الحاج عبد القادر الذي عامله باكرام فى بداية الامر ، ولكنه حينما علم بخيانته وأطلع على تفاصيل حياته الماجنة ، كبله بالاغلال غير أنه استطاع أن يهرب الى الفرنسيين ، وعندهم أطلق العنان لمؤامراته وفجوره .

4

وأخيرا ، أتاني جواب السلطان محمود بعد احتلال مدينة عنابة ، وكان كالآتي :

« ان سلوككم ازاء الفرنسيين والاجابة التي تفضلتم بها على اقتراحاتهم ليتفقان فى نظري ، كل الاتفاق مع العدالة فأثبتوا على هذه السيرة ، انها هي الوحيدة التي يمكن أن تساهم فى خير الاسلام والمسلمين . ومما لاشك فيه انني أريد نجدتكم ، وفي هذه الظروف ، انني في حالة سلم مع عنابة فاكتفى باخلائها من السكان . أما الفرنسيون الذين كانوا قد تلقوا فى ذلك الحين نجدات معتبرة ، فانهم لم يتوقفوا عند استيلائهم على القصبة ، وانما نزلوا الى المدينة واستقروا فيها بكيفية محكمة .

كل هذه الامور التي ذكرتها وقعت بعد احتلال الجزائر بعامين . وأحدث الاستيلاء على عنابة قطيعة مطلقة بيني وبين الفرنسيين . ولم أعدْ أفكر منذ ذلك الحين ، الا فى خلق أكبر عدد ممكن من العراقيل لمشاريعهم المقبلة ، وفى هذا الصدد أمرت ابن عيسى بمحاصرة عنابة ومنع تموينها.

وقام الفرنسيون بتنصيب المملوك يوسف ، وتعيينه على راس فرسان البلد . أما ابراهيم الذي لجأ الى الجبال ، فانه ظل يحاربني مدة عامين ، كما كان يدير حربا عوانا على الفرنسيين . وأخيرا لجأ الى المدية وتوفى فيها . (22)

أما الباي مصطفى بومزراق الذي كان قد انضم الى الفرنسيين فى بداية الامر ، فانه لم يلبث أن خانهم ، وفى جميع البلدان المسيحية ولا يمكن أن أقطع العلاقات الا اذا وجدت اسباب جدية* للغاية . واذا قدمت لكم اقتراحات جديدة ، فأجيبوا عنها كذلك بتملص ، وأوضحوا بأنكم من رعايا القسطنطينية ، ، وبأنه لا يمكن أن تتفاوضوا الا

(22) — ورد فى مذكرة من وزارة الحربية (المحفوظات الوطنية فى باريس ، ف 80 ، 1973) ، انه مات مقتولا بتحريض من أحمد باي وان ابنه وضع نفسه تحت تصرف فرنسا .

عن طريقي وأوصيكم ، خاصة ، أن تحيطوني علما بجميع الاقتراحاتالتي تعرض عليكم ، وابقـوا فى طاعتي ، ولا تبرموا السلم الا اذا أمرتكم بذلك ، ولا تقلقوا فانني مهتم بكـم . »

كانت هذه الرسالة تحمل خاتم رؤوف باشا ، وسلمها لي رسل قسنطينة الذين نزلوا فى طرابلس ومنها حملوها الي .

وبدا لي ان اجابة السلطان لم تكن مرضية ، فقررت أن أرسل من جديد أحد أعواني الى القسطنطينية ، وانتهيت الى اختيار بلهوان وتكليفه بالذهاب الى الوزير رؤوف يحمل اليه الرسالة التاليـة :

انظروا أيها السلطان كيف أصبحـت اليوم ملاصقـا للفرنسيين لقد استقروا فى عنابة وصاروا ، فى كل يـوم ، يتقدمون ويتحصنون ، ومن الممكن أن أهاجم من لحظـة لاخرى وأنا مستعد لاضحي فى سبيل ديننا الحنيف،ولاهلك دون أن استسلم اذا كانت تلك هي ارادتكم . ولكنـه ، اذا أردتم أن نقاوم، فابعثوا لنا النجدات وعززونا بنصائحكم وجيوشكم . واذا رأيتم مـن المستحسن أن نستسلم الى الفرنسيين فامروا بذلك ، واننا سنفعل فى الحين ، ومن سوء

الحظ ، فان الوضع الذي نحن فيه لا يشير الى شيء آخر غير الطريقة الاخيرة ، ولكن ، بالله عليكم خلصونا من هذه الحيرة . »

واستقبل الوزير رؤوف بلهوان بشيء من الحذر . وكانت الاجابة تأمرنا بالصبر ، وتذكر أن رسولا سيأتي الى قسنطينة للاطلاع على حقيقة الامور .

والسبب فى هذا الاحتراز هو ان باي تونس كان قد بعث الى السلطان محمود رسائل تهدف الى اظهاري فى مظهر التمرد اذ تقول : « انكم لا تعلمون ما يجري فى قسنطينة ، ان أحمد قد شق عصا الطاعة ، وتلقب بالباشا ، وأعلن عن استقلاله ، انه يضرب النقود باسمه كما لو كان هو سلطان القسطنطينية » . ولذلك قرر الامبراطور ، كما ذكرت ، أن يبعث الى عين المكان أحد رجاله الامناء . وكان ذلك هو كامل باي . (23)

---

(23) — ان هذه المعلومات تفند ما جاء فى اطروحة ج . سار « سياسة الاتراك فى شمال افريقية فى عهد ملكية جوليت » ص 189 ، اذ يقول : انه لم تكن هناك علاقات مستمرة بين الباي أحمد والباب العالي قبل سنة 1835 .

5

وفى هذه الاثناء كنت بناحية عنابة فى حرب مستمرة مع الفرنسيين من جهة ومع الباي ابراهيم من جهة أخرى وكان يوسف يقوم بغزوات متعددة ضد القبائل المجاورة . وعلى اثر غرق حدث على ساحل سكيكدة ارجعت الى الفرنسيين أربعة من النوتية الذين فقدوهم ، وبذلك بدأ الجو يتحسن بيني وبين سلطات عنابة. كنت أتمنى ان تستمر العلاقات فى تحسن عندما قدم الى قسنطينة ذات يــوم المدعــو سي حمدان (24) من مواليد مدينة الجزائر . لقد كان مرسلا الي من الحاكم الجديد ، الدوق دورفيكو ، فسلم لي رسالة كانت بالتقريب ، تحتوي على العبارات التالية :

« أستسلموا لفرنسا التي وهبها الاله سلطان افريقيا . انه لمن الواجب عليكم ، ومن حقنا أن نطلعكم على الشروط التي نضعها لاستسلامكم ولابقائكم فى الحكم . تدفعون 3 ملايين من الفرنكات كتعويضات للحرب وللحملات التي تتسببون فيها يوميا . بعد ذلك تدفعون اللازمة مرة فى كل

---

(24) ـ هو سي حمدان بن عثمـان خـوجه صاحـب المرآة ، والذي لعب دورا كبيرا أثنـاء احتـلال الجزائـر وبعده .

سنة . فتفاهموا فى كل شيء مع رسولي : سي حمـــدان . انني وكلت اليه التفاوض معكم وفقا لتعليماتي . »

أجبت سي حمدان « بأنني لست وحيدا فى البلد ، ولا أستطيع التفاوض من تلقاء نفسي . انما سأجمع قادة المدينة والمقاطعة ، لانني تعودت الاخذ برأيهم قبل القيـــام بـــأي شيء . »

واستدعيت ، حينا ، جميع الاعيان فى المدينة وفى خارجها، وبمحضر سي حمدان قرأت عليهم الرسالة التي تضمنت نوايا الحكومة الفرنسية . وعلى اثر ذلك بدأ النقاش وبعد أن تكلم كل واحد وأدلى برأيه ، تم الاتفاق على أن تكـــون الاجابة على الرسالة المذكورة بالعبارات التالية : (25)

« من جميع الاعيان فى المقاطعة الى حاكم مدينة الجزائر ، لقد اتصلنا برسالتكم ، وشرح لنا مبعوثكم سي حمدان كل نواياكم . فكيف تريدون منا أن ندفع ثلاثـــة ملايين (26) بوجو انه مبلغ يفوق مستلكاتنا . آما عن اللازمة ، فاننا لا نرفض دفعها اليـكم ، ولكن ، ليتم ذلك يجب أن تسحبوا

---

(25) ــ مراسلات روفيكو ج 2 ، ص : 558

(26) ــ هو الريالي بووجه : عملة كانت سائدة فى البلاد قبل الاحتلال تساوي 1ر8 فرنك فرنسي .

جنودكم من المناطق التي تحتلونها . ان كل ثروتنا تتمثل فى القموح والاصواف التي كنا نبيعها فى ميناء عنابة . فـــاذا أرجعتم الينا هذه المدينة ، فاننا سنكـــون قادرين على أن ندفع الضرائب كما كان الامر فى الماضي ولن نرفض ذلك أبدا . ثم بعد ذلك تقيمون قنصلا فى عنابة كما هو الشأن فى السابق ، وعلى هذا الاساس يمكن أن نتفاهم . بيد اننا ننذركم بأننا لا نستطيع ابرام أي اتفاق نهائي دون اعـــلام السلطان محمود الذي هو سيدنا . ولقد أخبرناه بعد بجميع المقترحات التي عرضت علينا . وان التفاوض اليوم ، بدون رضاه ، يعتبر عملا صبيانيا يفند كتاباتنا . وعليه يجب أن نكاتب القسطنطينية » .

خرج سي حمدان بكتابنا وتوجه الى عنابة ، ومنها أبحر عائدا الى مدينة الجزائر .

وبعد ذلك بقليل رجع الى قسنطينة ، ومعه رسالة ثانية من الجنرال الفرنسي . وكانت الشروط ، فى هذه المرة ، قد تغيرت . لم نعد مطالبين بثلاثة ملايين بوجو ، ولكن المبلغ انخفض الى خمسين ألف دورو الى جانب اللازم السنوي . ومقابل ذلك تتعهد فرنسا بأن تحصل لي على القفطان مـــن القسطنطينية ، شريطة التمكن من تنصيب حاميات فرنسية

في قصبتي عنابة وقسنطينة ، وزيادة على ذلك يكون ميناء عنابة تابعا للفرنسيين ، وتكون فيه حرية التجارة لهم وحدهم . فأجبت سي حمدان ، وسلمته رسالة أقول فيها بأنني لا أستطيع قبول هذه الشروط ، ولا دفع الخمسين ألف دورو التي تعتبر مبلغا باهضا بالنسبة الينا ، خاصة منذ أن جردنا من المواني التي هي مصدر ثرواتنا . وكررت كذلك بأن التفاوض لا ينبغي أن يكون معنا ، وانما يجب التوجه الى القسطنطينية .

عندئذ قال لي سي حمدان : « من الخطأ أن تواجهوا الفرنسيين بهذا الرفض المطلق .

فزودوني بعبارات ألطف ، واعطوني 5 أو 6 آلاف دورو وسأذهب الى باريس وهناك أقوم بمساعي لصالحكم ، وسوف أتمكن من تسوية قضيتكم بحيث يتركونكم في أمان . »

.وكانت اجابتي : « يا سي حمدان ، يشهد الله ، لو كنت أعلم أني أحصل على هذه النتيجة بواسطتكم لدفعت عشرين من اضعاف ما تطلبون ، ولكنني لا أعتقد انكم تنجحون ». ألح سي حمدان على امكانية تنفيذ هذه الخطة وأكد بأن المبلغ الذي يطلبه مني يزيد عن الكفاية .

عندئذ أحضرت خزنداري ، فنقده المبلغ أمامي وتوجه الى عنابة ومنها الى مدينة الجزائر . وبعد ذلك علمت انه ذهب الى فرنسا ثم الى القسطنطينية ، وعندما رأيت وعوده لم تتحقق كتبت له ، فأجابني بأن لا خوف علي ولا على دراهمي ، ولكنني فى الحقيقة تعرضت للمصائب وفقدت دراهمي الى الابد . (27)

6

فى أثناء هذه المفاوضات قدم الى قسنطينة كامل بـاي المبعوث الذي أرسله السلطان ليطلع على أوضاع البلاد . فاستقبلته استقبالا يليق بمرتبته ، وأمرت حينا ، باستدعاء جميع الاعيان فى المقاطعة . وعندما اجتمعوا حولنا خاطبهم كامـل قائـلا :

« لقد أرسلني السلطان أعزه الله لادعم شجاعتكم وأطلب منكم الالتزام بالايمان والصبر ، لان السلطان محمود قد تفضل بالتفاته الى بلدكم ، وهو لا يريد له أن يتألم مـدة أطول ، ويقوم الآن بابرام صلح يرمي الى ابقاء المقاطعة فى

(27) ـ يذكر حمدان فى مرآته ، ص : 213 ان الباي بذل كل ما فى وسعه التفاهم مع الفرنسيين ويؤكد كل ما أورده الباي حول هذه القضية .

حوزته بصفة نهائية . وعليه فلا تقبلوا أي شرط دون الرجوع الى عاهلكم الشرعي ثم أوصيكم بالاتحاد ، وسينصركم الله . »

صفق الجميع لهذا الخطاب ووعدوا بتنفيذه نقطة نقطة ثم سأل كامل الاعيان عن البلاد وعن اداراتي . ومن خلال هذا البحث اقتنع ببطلان اتهامات باي تونس . وبقي عندي مدة ظل يردد أثناءها نفس العبارات التي تفوه بها فى الايام الاولى . وأخيرا أراد أن يطلع السلطان بنتائج مهمته . وقبل أن يتوجه الى القسطنطينية طلبت منه أن يشتري لي عدة أشياء وخاصة شالات كاشمير وبمجرد وصوله أنجز المهمة ، وبسرعة فائقة أرسل لي ما طلبته بواسطة أحد خدمه ، ويدعى عثمان فجاءني الى قسنطينة وسلمني رسالة من كامل هذا نصها :

« بمجرد ما وصلت الى مقام مولانا الملك ، فضحت لجلالته جميع الاتهامات المغرضة التي وجهها ضدكم مصطفى باي تونس . وان السلطان يطلب منكم ان تتسلحوا دائما بالصبر ، وعما قريب سيبرم صلحا لفائدتكم ، واذا لم يكن النجاح كما يتمناه ، فانه سيقرر ، عندها ، نجدتكم بقوات معتبرة . فلا تخفوا عنه شيئا من أمركم ، واذا كنتم تريدون

ابلاغه معلومات هامة ، فافعلوا ذلك بواسطة سي الطاهر باشا الموجود فى طرابلس ، والذي يجب أن تبعث جميع مراسلاتك عن طريقه . » (28)

7

وهنا يجب أن أذكر ، بحسب ترتيب الاحداث ، انذارا من الله أنبأني بالمصائب التي سأتعرض لها فى مستقبل قريب. لقد كنا فى منزل الربيع عندما أصاب قسنطينة مرض مريع ، هو الريح الاصفر (الكوليرا) الذي أطلق عليه اسم « واف » (29) . وهو مرض كان يجعل من الرجل الصحيح، فى لحظة ، جثة هامدة وقد ظل يخرب مدينة قسنطينة مدة 17 يوما . مات فى اليوم الاول 220 شخصا من جملتهم 22 جنزية من منزلي . وفى اليوم الثاني بلغ عدد الضحايا 600 ثم 700 فى اليوم الثالث . وبعد ذلك صار الوبأ فى نقصان الى أن زال نهائيا فى اليوم السابع عشر . ولم ينتشر فى قسنطينة وحدها ، وانما بلغت الوفيات فى جميع القبائل

(28) ــ قد تكون هذه الرسالة هي التي جعلت سار وغيره يعتقدون بأنه لم تكن هناك علاقة مباشرة بين الباي أحمد والباب العالي .

(29) ــ أنظر صالح العنتري ، ص 69 ، حيث يقول : ان هذا الوبأ ظل مدة أيام يبيد يوميا 500 شخص .

درجة جعلتنا نعتقد ان عزرائيل ناقم عن بلدنا . لقد كـان هناك معسكر ، وعندما رأى مكونوه ان عددهم لم يعد كافيا لدفن الجثث فروا متفرقين . ولقد شهدت حادثة أثرت في تأثيرا عميقا ، وخلاصتها ان طفلين كانـا يلعبـان على ركبتي ، وفجأة شحبا ولم تمرر الا لحظات حتى لم يبق بين ذراعي سوى جثثين هامدتين . ووقعت بدوري مريضـا ولم أنج الا برعاية خاصة من الله . وأقيمت الصلوات فى جميع المساجد فحن الله علينا ، وكما ذكرت ، توقف الموت عن انتهاشنا فى اليوم السابع عشر .

لن أتكلم عن الحملات المتعددة التي أمرت بشنها ، أثناء السنوات التي عقبت احتلال عنابة (30) ، عـلى قبائـل الصحراء وقبائل وادي مغير التي لجأ اليها فرحـات بـن السعيد ، والتي ظل يشعل فيها نيران الثورة ضدي ، حتى أن الضرائب أصبحت فى هذه الناحية ، لا تدفع الا قهرا . وكان على شيخ توقرت أن يتوب مرات عديدة . غير ان هذه الاعمال لم تهدد ، قط ، سلطتي : اذ أن الحرب هي عادة الاعراب وان الذي يريد حكمهم قد يتحتم عليه ابقاءها

(30) ــ تفاصيل هذه الحملات موجودة فى كتاب بوعزيز بن قانه المذكور ، ص : 47 وما بعدها .

بينهم ، والتحريض على المنافسات بين القبائل المختلفة الاصول والاجناس . أما أوضاع السلم ، فانها تقارب بين العرب وتوحدهم حول غرض واحد . وهذه حالة لا ينبغي أن يطمئن اليها من كان يريد السيطرة عليهم اذ قد تأتي ظروف يتحد فيها هؤلاء الرجال كالاخوة ، ويجدون أنفسهم منظمين للقيام بالثورة . وعلى العكس ، فاذا وجدت الحرب أو العداوات بينهم، فان من يريد حكمهم يكون دائما متأكدا من ايجاد الانصار . ومن المعلوم ان الحرب بين القبائل تخرب البلاد وتسهل السيطرة على من كانوا بعيدين عن السلطة ، خاصة اذا لم تكن لهذه الاخيرة جيوش كبيرة أو حاميات متعددة فى الحصون تنفذ أوامرها .

8

ان الذي شغل بالنا ، بعد الكوليرا ، هو رجوع يوسف المملوك الى عنابة . لقد كان غادر هذه المحلة التي رأيناه نزل فيها للمرة الاولى ، ليتبع الفرنسيين الى الغرب . وعندما عاد شرع يوزع كمية من الرسائل على سكان المقاطعة تقول لهم فيها : أقبلوا علي ، انني مسلم مثلكم ، بعثت أخلصكم من الاحتلال الفرنسي ومن طغيان أحمد الذي يضطهدكم . انني لم آت الى هنا الا لاساعدكم على

ابادة جميع الفرنسيين ، وللقضاء على وجودهم . اجعلوني على رأسكم وسوف ترون انني أعرف كيف أنجز مشروعي ».

لقد قرأت عددا من هذه الرسائل التي وجهها لي حسناوي الذي كان موجودا بعنابة . وتبعا لما أوصيت به من اخطار السلطان بكل ما يجد فى المقاطعة ، أرسلتها الى الوزير رشيد باشا فى القسطنطينية ، ولا أدري اذا كانت هذه الرسائل عرضت على السلطان أم لا ، ولكنني أجزم بأن سي حمدان ، الذي كان فى القسطنطينية آنذاك ، قد كلف بترجمتها الى التركية .

واستولى الفضول على العرب الذين اتصلوا برسائل يوسف ، فأرادوا أن يعرفوه ويختبروا دينه . ولذلك بعثوا اليه جماعة منهم تستوضح الامر (31) فاستقبلهم يوسف بحفاوة ، وليؤكد لهم صحة اسلامه أدى أمامهم الشهادتين وردد مرارا : « لا الاه الا الله محمد رسول الله » . ثم كرر لهم ما كان قد ضمنه رسائله ، من انه لم يأت الى البلاد الا ليطرد الفرنسيين منه .

---

(31) — كان يوسف يشرب الخمر ، ويأكل الخنزير حتى فى رمضان ، ويرقص مع الاوربيات ، كما كان ينهب القرى المجاورة ، ويطلب من جميع القبائل الدراهم والنساء ، ويقتل ، تحت العصا ، القادة الذين يرفضون تلبية رغباته (مراسلات كلوزال ، اسكار ، ج 2 ، ص : 120) .

ولا تنور بدوري واستفسر عما يقوله يوسف ، أرسلت له ابن شيخ وادي زناتي . فقصده هذا الشاب الى عنابة باذن مني وأحاط سفره بغموض كبير وتقابل معه مدة طويلة دارت فيها المناقشة حول كل ما ورد فى رسائل يوسف . والظاهر ان هذا الاخير اعجب بحديث الرسول الفتى ، ولاكتساب ثقته أهداه بندقية جميلة لم يحتفظ بها وانما حملها الي .

بعد ذلك وجه له ابن الشيخ السؤال التالي : « فى أية فترة تريدون تنفيذ ما وعدتمونا أن تقوموا به ازاء الفرنسيين وأجاب يوسف بأنه لا يستطيع تحديد ذلك « لانني مازلت فى حاجة اليهم ، ولكنكم سترون فيما بعد كيف أنفذ وعودي . »

لقد كنت وما زلت مقتنعا بأن كل ما كتبه عن مشاريعه ضد الفرنسيين ، لم يكن سوى لمغالطة العرب ، وتأكد لي ذلك ، خاصة، عندما رأيت ان نفس يوسف هذا طفق ليكون لنفسه حزبا فى المقاطعة ، ينشر عن حياته الماضية أقاصيص كاذبة تبين للجميع فيما بعد انها لا تعتمد على أي أساس من الصحة .

وهكذا أراد أن يقدم نفسه كأخ لاحمد باي المملوك باي

قسنطينة السابق . ولكنه تبين آن احمد باي كان جورجي المولد بينما يوسف يهوديا من يهودي ايطاليا المرتدين .

لقد علمت بهذه التفاصيل من أحد رفقائه القدماء ، المسمى سليم الذي قضى معه سنوات طويلة عند سليمان كاهية تونس ، حيث كانا مملوكين . فلم يخدم اذن ، سوى باش مملوك باي تونس . وذات يوم فر يوسف وسليم بعد أن ارتكبا عملا اجراميا ازاء سيدهما . فقصد يوسف الفرنسيين ، بينما جاء سليم الي فاستقبلته بحفاوة وقلدته منصب قائد الشعير ليكتسب عيشه . وكثيرا ما كان يقص علي النوادر المذكورة ، وانه لمن حقي أن أثق به ، خاصة وأن الرجل ظل وفيا لي عندما سلطت علي المصائب ، فتبعني الى المنفى . ولما أذنت له بالانسحاب كتب الى سيده ليعفو عنه ، ولكن سيده كان قد نقله ربه الى جواره . ومع ذلك رجع سليم الى تونس وهو اليوم يشغل منصبا ممتازا فى جيش الباي احمد ، وفى استطاعة كل واحد ان يسأله انه هو الذي أخبرني بأن يوسف كان يهوديا ، وذلك فى الظروف التالية : التقيت به عندما علمت ما كان يجري فى عنابة فقلت له : « يا سليم ألا يتركني أخوك أنا وشأني ـــ أيها السلطان ،

كيف يمكن أن يكون هذا الرجل أخي . ولدت في الشركس من أبوين مسلمين ، وولد يوسف في ايطاليا من أبوين يهوديين . »

بعد كل هذا تعجبت كثيرا من مساعدة الفرنسيين له وفهمت جيدا أن كل أقواله عن طردهم ، لم تكن سوى نتيجة اتفاق بينهم . ولكن الذي لم أستطع أن أتصوره هو اعطاء السلطة لرجل ليس له أي تأثير في البلاد . وبالفعل ، فلكي يكون للمرء نفوذ يجب أن تكون له ثروة عظيمة ومواهب كبيرة ، وان يكون عالما وشجاعا ومن أسرة نبيلة جليلة ، ويوسف لا يملك أي شيء من هذه العناوين كلها . وان الذين لم يكن لهم أي كره ضد الفرنسيين يسخطون عليهم عندما يرونهم يريدون أن ينصبوا على رأسهم رجلا عرف في تونس كأبسط ما يكون. وان هذا السخط ليزداد عندما نعلم انه أحاط نفسه بأناس انقضوا على المقاطعة ليستحوذوا على المناصب وأعني هؤلاء الناس القائد سليمان بن زكري (32) وغيره .

(32) ـ يقول عنه بيليسي في حولياته (الجزء الاول ، ص 323) : انه شخصية غامضة هرب من قسنطينة ولجأ الى الجزائر حيث اتصل بقائد الحملة فكلفه بحماية « حصن الماء » (برج الكيفان حاليا) مقابل 6000 فرنك شهريا .

على ذلك ، فان جيوشي لم تكن محنكة كما ان فرساني لم يكونوا قادرين على التحرك بسهولة فى الاراضي التي تجتازها . وعليـــه قلت فى نفسي : « لنتـــرك الفرنسيين يتقدمون الى قسنطينة دون أن تتعرض لطريقهم وان نفس الرجال الذين ضعفوا فى السهل سيقاومون أحسن مقاومة عندما يكونون وراء الاسوار . ومن جهة أخرى ، فـــان للفرنسيين أمتعة كبيرة ، وتحركاتهم صعبة ثم بعد ذلــك يتحتم عليهم أن يهاجموا قسنطينة . ان العملية خطيرة وما علينا الا أن نتركهم يتقدمون الى داخل المنطقة وأتبعهم عن كثب حتى يكونوا بيني وبين المدينة ، ويكون عليهم أن يحاربوا على جبهتين . » وعلى أساس هذه الخطة لم تعد المدفعية تفيدني كثيرا ، فأرسلت جزءا منها الى المدينـــة وانسحبت مع الاجناد الى مؤخرة الجيش الفرنسي لا تفصلني عنه سوى مسافة قصيرة جدا ، أرقب باستمرار جميع حركاته . (35)

---

(35) ــ يذكـــر مارســـي فى كتابـــه « حـــول حصـــار قسنطينة » ص : 18 : أن أحمد لم يتحرك أثنـــاء هـــذا الحصار ، ولكن خطة الباي كانت معقولة جدا وهي التـــي مكنته من الانتصار .

وأخيرا وصل الفرنسيون الى قسنطينة ، ولكن الامطار
الثلوج التي كانت قد سقطت بقوة خارقة تكاد لا تعرف
مثل هذه الفترة من السنة ، قد ألحقت بهم خسائر
ادحة ، ومنع الوحل والثلج من تقدم تجهيزات المدفعية
عتاد الجيش وفى الحين أوليت كل اهتمامي بمن تبقى
المؤخرة ، فهاجمتهم وقتلت عددا كبيرا منهم وغنمت
قسطا من التجهيزات . وان الذين تمكنوا من اللحاق
بالمقدمة ، لم يتسن لهم ذلك الا مشتتين وفى كثير من
الفوضى .

وعندما التحق هؤلاء الرجال بمشقة كبيرة بالجيش ،
لم فى الحين تنصيب مدافع فى المنصورة وفى هضبة سيدي
مبروك لمهاجمة المدينة . وانقسم الفرنسيون الى فريقين
لم نزلوا مع منحدرات المنصورة وقطعوا وادي الرمل
وليتمركزوا فى كدية عاتي (36) ويجعلوا منها نقطة هجوم
ثانية ضد المدينة .

وتوجهت بكل ما أخذته من الفرنسيين الى المكان
المسمى مسلح (37) فى طريق قسنطينة ، ثم أقمت المدفعية

(36) ـ هي الكدية الحالية ، فى قسنطينة .
(37) ـ ربما هي عين الصلاح الواقعة على مقربة من
وادي زناتي .

التي بقيت معي فى الونقات (38) وأضفت اليها جميع الغنائم . وهكذا أصبح الفرنسيون ، كما توقعت ، بين المدينة التي ينوون مهاجمتها وفرساني الذين يحاصرونهم .

ولما خشيت أن تكون حامية قسنطينة غير كافية ، قررت أن أرسل اليها جزءا من عساكري الذين يمكنني الاستغناء عنهم . واستطاعوا أن يمروا وسط الجيش الفرنسي ، ليلا ويدخلوا قسنطينة من جهة صعبة توجد بين القصبة والباب الجديد والمنحدر الذي تسلقوه للوصول الى هذا المكان يسمى : عقبة السماره (39) وقد وقعت فى هذه الليلة ، بين المدينة والفرنسيين معركة حامية الوطيس امتدت طوال اليوم الثاني وكانت الامطار تشكل عائقا بالنسبة لجميع المحاربين الا أنه كان أقل بالنسبة الينا نحن الذين نعرف الميدان الذي تدور فيه الحرب ، ولذلك استفدنا من جميع المزايا ولم نسمح للفرنسيين بأن يذوقوا طعم الراحة ولو لحظة واحدة . غير أن الوقت كان معاكسا الى درجة انني أمضيت عشرة أيام متتالية دون أن استريح ساعة وقد

(38) ــ نعتقد انها مدينة الزغوت يوسف حاليا ، والتي كان الفرنسيون يسمونها « السمندو » .

(39) ــ هي العقبة التي ندخل منها الى قسنطينة عندما نأتي من عين السمارة التي تبعد بحوالي 20 كلم عن المدينة .

أثرت الاتعاب والآلام فى جسمي حتى انني ما زلت أشكو الاوجاع فى كامل نصفي الايسر . ومع ذلك عرفت كيف أتحمل المشاق .

أصبحت العلامات تـدل على ان الفرنسيين استنفذوا عنادهم ، وفهمت انهم صاروا يريدون القيام بمحاولـة يائسة للاستيلاء على المدينة . لقد كانوا ، كما ذكرت ، يقومون بهجوم مزدوج ، يستهدف الاول باب القنطـرة بينما وجه الثاني ضد الباب الجديد . فأما الهجوم الاول ، فانني لم اكترث له كثيرا لأن الوصول الى باب القنطرة يتطلب اجتياز القنطرة وهي ضيقة وباستطاعة حراس هذا الجانب أن يتصدوا له بكل سهولة .

وأما فيما يخص الباب الجديد ، فان الامر يختلف لانه يقع فى مفرق طرق الاجزاء الموحدة بين كدية عاتي والمدينة، وهو النقطة الحساسة التي يجب أن تهاجم منها قسنطينة ، والمكان الوحيد الذي يمكن أن يتم منه الحصار .

كان الجو قد ازداد رداءة ، وكنا نستعـد لاستقبـال اليوم السابع عندما بدأت جيوش الباب الجديـد تتقـدم وفى أثناء الليل نصبت مدفعا قريبا جدا من الباب ، وكان الغرض هو توجيه قنابل تتلف قضيبا حديديا كان يمسكها.

وأقام المدفعيون الفرنسيون بواسطة الحبالة نظاما خاصا لاحكام التصويب ولاصابة الهـدف المقصود بالضبط . وانطلقت النار لكن القنبلة اخطأت الهدف . غير انها أطلقت بقوة فائقة حتى انها اجتازت ثلاثة أبواب وراحت تستقر فى أعماق سور أحد المساكن المجاورة . وعلى اثر الانفجار مباشرة اندفعت الجيوش ، لكن الباب لم تفتح ، ومـن القمة التي كانت محصنة أطلق المدافعون النيران فقتلوا ستة عشر رجلا ، وانسحب المهاجمون تاركين مدفعهـم وحصانا مجروحا .

من جهة باب القنطرة كان العدو قد أتى بأكياس التراب والسلاليم وصناديق البارود لتهديم البـاب . واندفعت الجيوش الى القنطرة ثم بدأت اشغالها ، ولكنه فى هـذه اللحظة ، أطلقت عليهم نيران مدفع كان معدا لهذا الغرض فقتل منهم اثني عشر رجلا . وأعيـدت الكـرة ، ولكـن الفرنسيين لم يتحملوا فانسحبوا تاركين وراءهم السلالم وصناديق البارود ومجموعة من الاشياء الاخرى .

أما أنا ، فقد ظللت أرقب ما يجري صحبة أجنادي . وفى الصباح الباكرْ سمعت مزامير جيوش المنصـورة وعـلى إثرها بدأت جيوش الكدية تنسحب . فانطلقت وراءها ،

مطاردها ، ولكن بنشاط قليل حتى أزيد من يأسها . وبدا لي من الواضح ان كل الجيوش الفرنسية تريد الانسحاب، استنبحت ذلك من كميات البارود الهائلة التي أحرقوها فى أوقات مختلفة دون أن يشكل انفجارها ما نسميه « بالفومادة » وعندما صارت هذه الجيوش تقطع وادي الرمل هاجمتها فعليا ، ولكنني بمجرد ما سمعت طلقتين من أحد مدافع البارود فى المنصورة أدركت ان العدو أمر بالعودة الى عنابة فخففت المطاردة ، وأصدرت أمرا لجميع فرقي حتى تترك الجيوش الفرنسية تنسحب .

ورفضت أن أغتنم فرصة رداءة الطقس لالحق خسائر أخرى بالفرنسيين قائلا فى قرارة نفسي : لو أننا نبيد الجيش كله بمطاردتنا هذه ومواصلة هجوماتنا المستمرة ، فان فرنسا ـ القوة التي لا تقف فى وجهها قوة ـ ستعمل بصرامة على أخذ ثار هذه الهزيمة ، الامر الذي قد يؤدي الى هلاكي . » ومن جهة أخرى كنت آمل ان الفرنسيين سيوفدون الي فى خضم هذه الاحداث ، شخصا يفاوضني ويعمل معي على ارساء سلم متين نستخرج بذوره من هذه الحرب . غير ان أملي كان بلا جدوى وان أحدا لم يأمني .

كنت وددت ، كما ذكرت ذلك أعلاه ، لو أنني أحول دون مطاردة الفرنسيين ، ولكن جنودي كانوا موزعين على مساحة واسعة جدا ، بحيث ان أوامري لم تصلهم فى الوقت المناسب . ثم ان العرب الذين يحبون النهب لم يتمكنوا من كبح أنفسهم . وأخيرا دخل جماعة من التونسيين الى مغارات المنصورة وذبحوا عددا كبيرا من الفرنسيين المرضى والجرحى الذين تركوا فيها الى مصائرهم . غير ان هذا كله وقع على عكس ما أمرت به . وظللنا تتابع الجيش الفرنسي الى الصومعة (40) حيث تكررت الفومادة التي اعتبرتها منجديد كعلامة للانسحاب .

لست أدري اذا كان من الضروري أن أذكر بأن وجود يوسف فىصفوف الفرنسيين هو الذي كان يشكل بلاشك ، السبب الرئيسي فى مقاومة سكان قسنطينة والمقاطعة وفى مقاومتي أنا بصفة خاصة .

فلو كنت أعلم انني أستطيع التفاوض مع الجيش والاحتفاظ بمرتبتي كباي لحاولت أن أفعل ذلك . ولكنني عندما رأيت انهم جاؤوا بباي ليستبدلوني وأكثر ليهينوني

(40) ـ مكان الهرم حاليا ، وكان الاهالي يسمونها صومعة أبليس .

اذ اختاروا لهذا الغرض مملوكا ، « ايكور غليا » من تونس ، لم أعد أرى شيئا آخر غير المقاومة النشيطة ، وهو ما فعلت وقد كان علي أن أفعله من قبل .

وهكذا اذن لاحقت الجيش الفرنسي دون أن أهاجمه بشدة ، واذا كان قد تعرض لهجومات خطيرة من طرف أجنادي ذلك كان عكس ارادتي .

وظللت أنتظر بعض المفاوضين ، ولكن أحدا لم يأت . ولقد اندهشت كثيرا لذلك ، لانني لم أتماد فى الملاحقة الا لاتصل برسول من الجنرال الفرنسي . وبقيت أتبع الفرنسيين الى ما بعد « مجاز عمر » والي قالمة حيث دخلوا معسكرهم . وفى أثناء الانسحاب كان يوسف يتبختر فى أوساط الذين كان سببا فى هزيمتهم ، وكان العرب الذين يرونه يصيحون فى وجهه قائلين : « كيف يمكن لك أن تبقى فى صفوف الفرنسيين بعد أن صيرتهم فى هذا الوضع وجلبت عليهم المصائب ، أنظر ماذا كلفتهم درجة باي التي أرادوا أن يرفعوك اليها » كما انهم كانوا يوجهون اليه شتائم أخرى تتعلق بأصله وبحياته حينما كان فى تونس .

أما أنا ، فعندما رأيت ان الفرنسيين لم يوجهوا لي آي

اقتراح ، وانهم أقاموا معسكرهم بكيفية تدل على انهم لن يبرحوه قبل أيام ، قررت الرجوع الى قسنطينة لاشكر أولائك الذين قدموا لي مساعدة لا يمكن تقييمها . وفى طريق العودة وجدت عددا كبيرا من العربات المشحونة بالمؤن المختلفة الانواع .

لقد كان فيها البيسكوت والسكر والقهوة وأدوات التشريح وعتاد الحرب والخمور والاحذية ، وبايجاز كل ما يحتاج اليه الجيش الفرنسي من تجهيزات . فأمرت بجمع هذه الغنائم ووعدت باعطاء اجازات للعرب الذين يحملون الي بعض البقايا . فحددت 2000 بوجو للمدفع و 500 بوجو للبندقية . ومن أتى بأسير حي يأخذ 500 بوجو ، بينما لا تعطى لمن يأتي برأسه سوى 200 بوجو .

وهكذا اشتريت بأموالي الخاصة كل ما قد ترك . ويقدر المبلغ الذي استعملته لهذا الغرض بأكثر من 100.000 دورو . ولقد تسامحت فى هذه العملية حتى انهم قدموا لي كلبا وجدوه فى مغارات المنصورة ، فاشتريته بما تبقى . وان الغرض من تصرفي هذا هو انني كنت أقول فى داخل نفسي : « ان الفرنسيين لن يبيتوا على هزيمة . » وانهم

سوف يعودون لاخذ الثأر ، واذا استطعت أن أرجع لهم كل دلائل الهزيمة ، فان الشروط التي يمكن أن أقترحها عليهم تكون أكثر معقولية . » (41)

بعد أن انتهيت من هذه المهمة رجعت الى قسنطينة حيث سرحت اجنادي وشكرت جميع الذين هرعوا لمساعدتي . ثم وزعت عليهم جوائز تتناسب مع خدماتهم وانصرف كل واحد راضيا مرتاح البال .

10

بمجرد ما رجعت طلبت من ابن عيسى ومن خليفتي أن يطلعاني على كل ما جرى . فعلمت انهم عقدوا مجلسا حربيا اثناء هجوم الفرنسيين ، وان شيخ البلد كان قد أشار بالاستسلام وبرفع علم فرنسا فوق المسجد الاعظم كدلالة على ذلك . وان هذا الاقتراح لحلقة من سلسلة المؤامرات التي كان يوسف قد حاكها ، واستطاع أن يشرك فيها معه ، جميع الذين يحقدون على سلطاني . والعامل الرئيسي فى هذه المسألة يدعى مرابط العربي الذي

(41) ـ يريد أحمد باي أن يبرهن الفرنسيين ، الذين كان فى اسرهم أثناء صياغة هذه المذكرات ، على أنه لم يكن عدوا لدودا لهم .

برهن لي ، فى تلك الظروف ، على لؤم شديد وأكد لي مرة أخرى صحة المثل القائل بأن العدو عدو حتى ولو اغدقت عليه النعم ، فانه يغتنم أول فرصة للايقاع بك .

قبل ارتقائي الى درجة باي ، وعندما كنت ما أزال قائدا على العواسى (42) عرفت العربي القسنطيني . لقد كان مشهورا بالفكاهة والمداعبة لا يحاشي أحدا ولم أسلم منه حتى أنا . وبما أن الداي حسين كان يسمع له ، فانه رفع اليه اتهامات ضدي أطلعني عليها الباشا فيما بعد وذكر لي صاحبها . غير انه لم يكن لهذه الاتهامات أي مفعول اذ أن حسين عينني بايا على قسنطينة بعد ذلك بمدة قليلة رغم ما أبديته من رفض ، فازداد غيظ العربي لذلك وأخبرت بكل ما كان يوجهه الي من سب ولم أعط لشتائمه اهتماما كبيرا ، بل لقد نسيتها . وفى هذه الاثناء استولى الفرنسيون على الجزائر . وعندما جمعت ــ فى جنان الباشا جميع الهاربين من المدينة ، جاءني العربي صحبة أسرته وقال لي : « يا أحمد انني لجأت اليك ، ووضعت بين يديك زوجتي وأطفالي وكل ما أملك . أعرف بأنني أسأت اليك ، ولذلك أهبك رأسي ، ولكن انقذ حرمي وأبنائي وأعدهم الى

(42) ــ قبائل كانت تسكن بناحية عين البيضاء

قسنطينة فأموت مرتاح البال . » وكانت اجابتي : « لا ! لا أريد رأسك ، ستتبعني ، وستقاسمني اتعاب الطريق . لقد مضى كل ما كان بيننا ووقع فى عالم النسيان . » ورد علي العربي من عبارات الاجلال والاحترام والاخلاص حتى ظننته صادقا . وفى الحقيقة لقد ظل هادئا مدة سنتين . فكافأته على ذلك وعينته قائدا على بني مروان (43) ولكن السلطة غيرته ، اذ انه لم يستعملها الا للتآمر ضدي . فاتصل بجميع أعدائي ، وكتب الى الفرنسيين وأخيرا ارتبط بيوسف وأصبح رائد جميع انصاره الذين يعملون على رفعه الى درجة باي . كل هذا جعلني لا أستطيع أن أعفو عن خيانته ولا أن أغض النظر عن كفرانه بالنعمة .

فحكم عليه بالاعدام ونفذ الحكم فيه . والجدير بالذكر هوان جريمته الاساسية ، فى نظري ، لم تكن هي رغبته فى الاستسلام للفرنسيين ، اذ كنت على قاب قوسين أو أدنى من ذلك ، ولكن الذي أدانه ، فى نظر السكان أنفسهم ، هو تآمره مع يوسف ليعين بايا . أما شيخ البلد ، الذي أجرم هو أيضا ، وبما أنه كان شيخا محبوبا لعلمه ،

(43) — قرية صغيرة على مقربة من الميلية .

فانني اكتفيت بأن ذكرت له خطورة الغلطة التي ارتكبها ، ثم ان تقديرنا له قد فرض علينا النسيان .

11

وبعد ذلك فكرت فى تصليح أسوار قسنطينة وحصونها التي تأثرت من هجومات العدو . ثم أمرت بتهديم جميع المنازل بين الكدية والمدينة لان المحاصرين كانوا قد استقروا بها ، واتقوا بحيطانها ليلحقوا أضرارا كبيرة بالسكان . ولم أترك الا القبة التي تأوي ضريح المرابط فارق . وأخيرا ، اشتريت من القبائل الجنويية كميات هائلة من البارود . وبهذه التدابير أصبحت قادرا على صد عدوان جديد تدل جميع العلامات على انه سيقع قريبا . وفكرت كذلك ، فى اعلام السلطان محمود بكل ما جرى وفي أن أطلب منه معونة ومساعدة فى حالة هجوم جديد . وأجابني السلطان برسالة كتبها شرف أفندي هذا نصها : « لقد علمنا من رسالتكم التي نقلها الينا سي الطاهر ، باشا طرابلس ، بكل ما حدث فى بلادكم . واننا نهنئكم على الشجاعة التي أبديتموها فى مثل هذه الظروف ، ونحمد الله على النصر الذي حققه لكم . اننا ندرك جيدا بأن الكافر سيهاجمكم من جديد ، ونخبركم بأننا لن نبخل

عليكم بمعونتنا . وسنرسل اليكم عددا كافيا من الجنود والمدافع ومن المختصين فى المدفعية . » لقد وصلتني هذه الرسالة فى فصل الربيع من سنة 1253 . وبعدها بقليل جاءني اعلام بأنه وصل الى تونس أربع بواخر مشحونة بالجنود الاتراك وعلى متنها 12 مدفعا و 150 من المختصين فى المدفعية وما يتبع ذلك من عتاد .

فى بادىء الامر ، سمح أحمد باي تونس بانزال المدافع، ولكن عندما وصل دور الجنود ليلتحقوا بالارض ويستعدوا للرحيل ، أرسل أحد ضباطه الى القبطان باشا يخبره بأنه على اثر وصول البواخر التركية ، دخلت الى مياه تونس سفن حربية فرنسية ، واذا تم انزال الجيوش ، فان الفرنسيين سيهاجمون المدينة خينا ولذلك فهو يرجوه عدم السماح بانزال الجنود حتى يحفظ السكان من كل سوء .

وفى نفس الوقت كتب لي رسالة يطلب مني فيها أن عذر سلوكه . ويقول بأنه يقيم علاقات طيبة مع الفرنسيين لا يريد أن يجلب لبلاده حربا مدمرة نتيجة سماحه الجيوش التركية بالنزول ويتأسف للظروف القاسية التي

اضطر فيها الى حجز معونة موجهة لاحد حماة الاسلام : وقد جاء في رسالته هذه : انني لم أفعل ذلك عن محض ارادتي ، وما قصدت غير الخير . فاسمح لي يا أحمد وانني أطلعت السلطان محمود على ما أرغمت عليه ، وقلت له بأن الدنيا بأسرها تخاف اليوم ، قوة فرنسا . ولا أستطيع أن أعرض مملكتي لغضبها . ومن جهتك أحطه علما بكل ما جرى وأكد له الحقيقة التي أخبرته بها » . لقد كان تصرف باي تونس ، فى تلك الظروف ، عن حيلة وخداع . فعلى الرغم من العواطف النبيلة ، التي خصني بها ، كما رأينا ، فانه كان يطمع فى ضم مقاطعة قسنطينة ، ثم انه رفض اعادة شحن المدافع بحجة انه سيرسلها الي فى الوقت المناسب ، ولكنها ظلت فى تونس حيث استعملها فى مصالحه الخاصة وظن القبطان باشا ان من واجبه الاستجابة لرجاء الباي ، فرفع الشراع وغادر المدينة دون أن يشترط استرجاع المدافع . وأحدث لي الاهمال الذي تركت فيه حزنا شديدا خاصة وان رسائل كامل باي كانت قد زودتني بآمال كبيرة .

12

أريد أن أذكر هنا ما دار بيني وبين ضابط فرنسي (44) كان فى تونس . لقد سافر الى هذه المدينــة ، لاغراض تجارية ، يهودي من قسطينة ، كان خادما فى قصري ويدعى ابن بعجو . وصدفة ، أو بسبب معين ارتبط بنقيب فرنسي اسمه فولتز (FOLTZ) ، وذات يوم قال له هذا الضابط : انني أريد أن أكتب الى سيدك ، فتحمــل اليــه رسالتي وتعود الي بجوابه . وجاء الله ابن بعجو الى قسنطينة حيث سلمني ما حمل . وكانت اقتراحات للصلح ألهمتني قراءتها فى الحين اجابتين ، أحديهما لوالي الجزائـر وثانيتهمـا للنقيب . ثم أرسلتهما الى تونس بواسطة ابن بعجـو . وبمجرد اتصاله بالرسالتين ، سافر السيد فولتـز الـى الجزائر وأخذ معه ابن بعجو الذي رجع لي باقتراحات من الوالي العام ، وكانت هذه الاقتراحات قاسية الى درجة انني لم أتمكن لا من قبولها ولا من الاجابـة عليهـا الا بالرفض ، وكان ابن بعجو ، مرة أخرى ، هوحامل الكتاب ،

(44) ــ قام بهذه المفاوضات ، فى بـادىء الامـر احـد المغاربة المقيمين فى تونس يدعي : الحريشـي (محفوظـات الولاية العامة ، و 120) .

فلم يذهب الى مدينة الجزائر لان الوالي العام الجديد الذي خلف صاحب حصار قسنطينة ، كان قد وصل الى عنابة . (45) وعندما كنت فى ناحية مجاز عمار (46) وجه الي المدعو بوجناح ، وهو يهودي جزائري يرتدي لباسا فرنسيا . فلم أتفاءل خيرا بمجيء رجل من هذه الملة ، لان اليهود ، فى هذه البلدان ، كانوا دائما قد عكروا صفو الشؤون السياسية التي تدخلوا فيها . انهم لا يحاربون ، ومن فائدتهم أن يروا غيرهم يتناحرون . انهم كالضباع التي تأتي بعد معركة الاسود تلتقط البقايا . واذا قيل لي لماذا استعملت اليهودي ابن بعجو ؟ أجبت بأنني لم أكن صاحب الاختيار ، وانما النقيب الفرنسي هو الذي انفتح لاول شخص التقى به ـ وربما كانت له تعليمات فى هذا الشأن ـ وصادف ان كان ذلك الشخص يهوديا .

فكبير الجنرالات ، اذن ، هو الذي أرسل بوجناح معتقدا ، حسب ظني ، بأنني فوضت لهذا اليهودي أن يتفاهم مع الفرنسيين . وكان ذلك غلطا . لانني لم أكن

(45) ـ يسند دامرمون رفض احمد الى مناورة من الامير عبد القادر (مراسلات دامرمون ، ص : 274) .
(46) ـ دوار صغير ا ب جانب حمام المسخوطين بالقرب من مدينة قالمة .

أعرف بوجناح ولا أسمع به الى اليوم الذي سلمني فيه رسالة تقترح علي الامان بالشروط التالية : (47)

ادفع غرامة حرب مقدارها مليونـان وتدخل حاميـة فرنسية الى قسنطينة تحتل القصبـة وبالمقابل تترك لـي السيادة على كل المنطقة الواقعة بعد مجاز عمار الـذي سيبنى فيه معسكر عندما يتم الاتفاق . وتنص الشـروط ايضا ، على أن جميع القبائل تستطيع ، اذا رغبت فـي ذلك ودون معارضة مني أن تعترف بسلطة فرنسا . وردت الي هذه الرسالة في بلاد عمر بالمكان المسمى بيار العسل وعلى الفور استدعيت جميع أعيـان المقاطعة ، وعندمـا وصلوا أجمعوا على عدم قبول هذه الشروط . وبعثـت الرسالة الى علماء قسنطينة فردوا بنفس الاجابة . وعليه أجبت كبير الجنرالات بان اقتراحاته قد رفضت ، لا مني فقط وانما من جميع اعيان المقاطعة ، ومع ذلك فالله يشهد أنني أريد السلم ، واذا كانت تلك هي أيضا رغبته فمـا عليه الا ان يقترح علي شروطا تكون اقل قسوة ، وقلت انني سأدفع اللازمة وكذلك مبلغا معتدلا مقابل مصاريف

(47) ـ نجد مـشروع هـذه المعاهـدة فى مراسـلات امرمون ، ص : 278 .

الحرب ، ولكنني لن أوافق على ترك القبائل حرة في الخروج عن طاعتي واذا فعلت فكيف تريدون ان أدفع اللازمة . لان العرب سينضمون اليكم عند أقل الغضب وأن الطريقة الوحيدة التي تسمح لي بأن ألبي رغبتكم هي ان تنسحبوا من المكان الذي انتم فيه لتبقوا في عنابة وتتركوا لي باقي المقاطعة ». وذهب بوجناح بهذا الرد ثم عاد بعد ذلك بقليل ومعه رسالة لا تغير أي شيء في الاقتراحات الاولى : انما هي تكرار لما كنت قد اخبرت به . وعليه اجبت بأن : « الشروط قاسية جدا ، ولا أرى انكم ترغبون في ابرام السلم ، ولو كان العكس لعدلتم الاقتراحات ، وان رسالتكم الثانية تشبه كتابكم الاول وعليه فاجابتي الثانية لا يمكن الا أن تكون مطابقة للاولى . واعتقد انه لم يبق بيني وبينكم غير المعركة ».

ان الجنرال الفرنسي قد أساء الاختيار عندما وضع ثقته في بوجناح ، لانني بمجرد ما أعلنت له تصميمي قال لي : « لقد أحسنت في رفضك حدود مجاز عمر التي اقترحت عليك . ان الفرنسيين أناس يريدون التوسع

---

(48) ـ ترجمة هذه الرسالة منشورة فى المراسلات المذكورة ص : 619 .

بجميع الوسائل الممكنة . فهم اليوم ، يطلبون منك هذا وغدا سيطالبونك بشيء آخر ، ثم ــ أضاف قائلا ــ ان جميع هذه الامور لا تقرر في افريقيا ، وانما في فرنسا أي في باريس . واذا أردتم ان تضعوا ثقتكم في فانقدوني 2000 دورو ، وسأذهب فى الحين الى هذه العاصمة وهناك سأحصل على سلم معقول وملائم لكم . « ولكنك ، ــ صحت فى وجهه ــ تتهم الفرنسيين بأنهم يريدون مخادعتي بينما تلك هي نيتك أنت أيها اليهودي . ان جيشينا متقابلان لا تفصل بينهما سوى مسيرة أربع ساعات ، وأنت تطلب مني الدراهم وتتكلم عن الذهاب الى باريس لابرام الصلح هل تعتقد ان الله أفقدني عقلي « لا تظنوا ، يا أحمد ، انني أريد مخادعتكم . انني لا أقصد بهذا الاقتراح الا الخير واذا لم تقبلوه فاستسلموا ، اذن ، للفرنسيين وادفعوا لهم المبلغ الذي طلبوه منكم ، وهو في الواقع ، مبلغ باهض لن تتمكنوا من دفعه الا اذا تجردتم نهائيا . غير ان هناك وسيلة سهلة تتخلصون بها ، فاجمعوا أعيان المقاطعة وباشحمباكم وخليفتكم وقائد الدار وقولوا لهم بأنكم تقطعون رؤوسهم اذا لم يمكنوكم من دفع المليوني

بوجو » . (49) وكانت اجابتي كالآتي : « الآن عرفت خبث نفسك أيها اليهودي الا تعلم أن هؤلاء الذين تريد القضاء عليهم هم ريش اجنحتي ، وأطراف جسدي واذا قطعت رؤوسهم ، فكيف أستطيع السير بعد ذلك » . ولم أتغلب على غضبي الا بصعوبة كبيرة ، ولو أنه لم يكن محصنا بامتيازات الرسول لعاقبته عقابا شديدا على كلامه هذا . ومما لاشك فيه انه حرف اجابتي عندما رجع الى المعسكر الفرنسي ، وان المعاملة التي تعرض ليها تتيجة اقتراحاته قد كونت لديه رغبة فى الانتقام لكرامته ولاطمئن من هذه الناحية ، ولابذل مجهودا أخيرا من أجل المصالحة ، أرسلت الى معسكر الفرنسيين كاتبي ومعه اثنان من المخازنية (50) وقد حملته رسالة جددت فيها اقتراحاتي الاولى . وظل الرسل غائبين مدة ليلتين ونهار ، لكن الجنرال لم يتأثر ولم يدخل أي تغيير على الشروط .

(49) ــ سبقت الاشارة الى هذه العملة ، واصلها الريال بووجه .

(50) ــ الكاتب محمد بن العنتري الذي قاد هذه المفاوضات مات بعد ذلك بقليل ، اما ابنه صالح ، فانه يتهم احمد بأنه قتله لكونه اعطى لسكان قسنطينة فكرة حقيقية عن قوة فرنسا التي لا تغالب ، وهذا خطأ لان احمد لم يكن يجهل ذلك ، وقد أعرب ، أكثر من مرة ، عن تخوفات الباب العالي .

لقد قمت منذ زمن طويل باستدعاء جميع الجيوش فى مقاطعة قسنطينة ، وقد هب جميع القادة لتلبية ندائي ، وأذكر من جملة من حضر : مسعود بن المبارك شيخ ريغة ، رزقي شيخ الحناشة ، الحاج رجب شيخ الحراكتة ، العربي ضياف شيخ الاوراس ، محمد بن بوعزيز شيخ بلازمة ، شيخ أولاد بوعون ، أحمد المقراني ، محمد بن عبد السلام المقراني ، ولد بن عبد الله المقراني ، شيخ أولاد الحداد ، ابن محمد مسعود ، ابن الحفصي المقراني ، قائد ساحل سكيكدة ، قائدا با أحمد ، شيخ المعاطلة ، بوطيب البادي ، محمد بن مراد قائد الشقفة ، بوعزيز بن قانة شيخ العرب ، محمد بن الحاج قائد التلاغمة ، بوعكاز شيخ فرجيوة ، ابن عز الدين شيخ الرواغة ، محمد بن بوعزيز قائد أولاد عبد النور . لقد جمع هؤلاء فيما بينهم 5000 فارس و 2000 من المشاة ، بقطع النظر عن العساكر المختصين فى المدفعية من جملتهم علي البومباجي جورجي ـ يولداشي الجزائر القديم ـ الذي برهن مرة أخرى ، أثناء الحصار على مهارته ، وسوف أتكلم عنه فيما بعد .

13

وبما ان كاتبي رجع دون أن يتمكــن مــن تغيير اراده الجنرال ، بدأت على الفور أستعد للمعركة . فهاجمت مدة ثلاثة أيام متوالية ، جميع الجيوش التي كانت متمركزة فى مجاز عمار (51) . وقد كنت أعلم أن جيوشا أخرى ، قادمة من عنابة ، ستنضم اليها : فقمت ، اذن ، بمحاربة الاولى قبل أن يتم الالتحام . غير ان هجومي لم ينجح ولم تتعطل الحملة فى شيء . لذلك رأيت أن أكتفي بمناوشتها وأخليت السبيل لاكرر الطريقة التي نجحت بها أثناء حصار قسنطينة الاول ، أي انني أعمل على جعل الجيــش الفرنسي بــين نارين : نار المكان الذي يريدون مهاجمته ونار جيوشي التي تطوقهم . وهكذا ، فبينما كان الجيش الفرنسي يتقدم كنت أرجع الى الوراء . وتوقفنا ، اليوم الاول ، فى سيدي دمدم، واليوم الثاني فىوادي زناتي والثالث فى الصومعة وقد انتهى كل من هذه الايام بمعارك متواصلة . وكانت المعركة التي نشبت بين الصومعة والمنصورة حامية الى درجة أن حرس بالمؤخرة الفرنسي لم يغادر الصمعة الا عندما وصلت المقدمة

---

(51) ــ يذكر دامرمون هــذا الهجــوم فى مراســلاته ، ص : 331 .

الى المنصورة . ولما اجتاز الجيش الفرنسي الوادي تصدت له حامية قسنطينة ، غير أن أعمالها لم يكن لها أثر كبير . وفيما يخصني ، فانني أرسلت جزءا من رجالي ليدعم الحامية لان عدد الفرسان كان كافيا لما أنوي القيام به .

وكما هو الشأن بالنسبة للحصار الاول ، فان الجيش قد انقسم الى فريقين رئيسيين بحيث ان أكبر جزء تمركز فى المنصورة الى أن تتم الاشغال الخاصة بقطع الوادي وتنصيب المدافع المعدة لثلم الاسوار . وكانت الامطار التي بدأت تتساقط بغزارة تعيق هذه العمليات اعاقة كبيرة . أما الجزء الآخر من الجيش الفرنسي الذي توجه الى كدية عاتي فانه تمركز قبل الموقع المسمى المسلح بقليل .

وفى هذه الاثناء التحق بي مولى الشقفة ، قائد قبائل جيجل والقل ، ومعه أكثر من 10.000 رجل . كما جاءني رجال من ميلة ومن كامل انحاء القبائل . أما المعاوي بن الاكحل من جبل عواج فانه جاء كذلك لمساعدة المدينة ، ولكنه وصل متأخرا اذ وجدها قد سقطت بعد فى أيدي الفرنسيين .

وعلمت ، أيضا ان أحد ابناء الملك قد وصل فى تلك

الاثناء الى معسكر الفرنسيين ليضطلع باحدى القيادات فيه. وكنت أعلم ذلك من قبل ولكنني لـم أتأكـد الا أمـام قسنطينة . ودفعني هذا الخبر الى التفكير مليا فانتهيت الى انهم لم يهملوا شيئا لانجاح العملية . انهم جاءوا ، فى هذه المرة ، ليهاجموا المدينة ، وليس معهم باي . انهم لم يأتوا لاشباع رغبة شخص واحد ، وانما أصبح الامـر يتعلـق بارضاء أمة عظيمة . ولذلك أوكلت نفسي الى الله .

وبينما كان الفرنسيون يواصلون تنصيب مدافعهم حدث أمر هام فى معسكرهم . لقد كنت وراءهم على مسافة قصيرة جدا ، وكنت أشاهد بالتفصيل ، بواسطة منظار ، كل مـا يجري هناك . فلاحظت تجمعا يتوسطه ضابط يتقبل تحية واحترام الجميع . لقد كان فى موكب ، الامر الذي جعلني أستنتج بأنني أمام اجتماع لاكابر الجيش وعليه أمرت ، من أعلى الموقع الذي كنت احتله بأن تنقل الاشارة المتفق عليها الى علي البومباجي ، رئيس المدفع المنصب في الباب الجديد ، ليرسل بعض القنابل مكان التجمع . وصعد علي الى القصبة لتحديد الهدف المقصود ثم عاد الى مركزه، وبعد ان صوب المدفع أطلق النار . ومن جهتي كنت أتتبع كل ما يجري وسط الاجتماع . فرأيت الجنود يتحركـون ،

وتقدمت عربة فحملوا عليها جثة واصطحبوها موجهين رؤوس بنادقهم الى الارض . فرمية علي البومباجي ، اذن كانت دقيقة انه اصاب أحد كبار الجيش . وأردت أن أغتنم هذه الفرصة لاهاجم الفرنسيين ، وان أجعل الهجوم منسقا مع خروج المحاصرين ، ولكننا لاقينا في جميع النواحي نفس المقاومة التي كنا تتعرض لها من الفرنسين ولم أتمكن الا من جعل جزء من مشاتي يحيطون بكدية عاتي ويدخلون المدينة من الباب الجديد ومن منحدرات القصبة . فراحوا يدعمون صفوف الجيوش التي يقودها الخليفة بن عيسى وقائد الدار محمد البجاوي ، وكان عددها اذ ذاك يزيد عن 4500 رجل مسلحين كأحسن ما يكون .

وفيما يخص طريقة الدفاع عن المدينة ، كنت أمرت بوضع عدد من الالغام ولكن جهل المنفذين افقد هذه الوسيلة قيمتها ، اذ أنه لم ينفجر سوى لغم واحد أثناء الحصار ثم أن الاضرار التي الحقها بالمدينة تكاد تكون متساوية مع الاضرار التي اصابت المحاصرين .

وغداة مقتل قائد الجيش ، وهو كبير الجنرالات على ما علمت فيما بعد ، ضاعفت المدفعية الفرنسية نشاطها ،

وتقدم الجنود يهاجمون الاسوار حتى انهم أحدثوا فيها ثلمة كبيرة على الرغم من أنهم لم يتسلقوها الا بصعوبة . ولكنهم واصلوا زحفهم وتمركزوا على قممها مستعدين لدخول المدينة . وفجأة تفجر اللغم الذي تكلمت عنه آنفا وقتل عددا كبيرا عن المحاصرين غير أنه اهلك في نفس الوقت ، كثيرا منا . اما الالغام الاخرى ، فانها لم تنفجر ، مما جعلنى فيما بعد ، عندما علمت بهذه الاحداث ، أتأسف لعدم وجود خبراء في هذا الفن من فنون الحرب . وتهافت جميع الفرنسيين على المدينة من مداخل متعددة فتحتها اليهم الافواج الاولى ، وعندما رأى ابن عيسى ان كل مقاومة اصبحت غير مجدية ، أمر بان يخرج السكان جميعهم من ناحية الصخرة فخرجوا نساء واطفالا وشيوخا كما خرج بنفسه من هذا الطريق الصعب الذي ترك فيه كثير من الضحايا ارواحهم بعد ان سقطوا في الهوة الكائنة هناك . وعندما انتبه الفرنسيون الى السكان وهم يخرجون خشوا ان تكون في الامر مفاجأة فاحضروا عددا من طوابير الكدية شتت الهاربين من جهة وادي الرمل .

هكذا ، اذن ، سقطت المدينة في قبضة العدو وبعد ان

اصبت بخسائر فادحة (52) قتل احسن اعواني ومن جملتهم محمد بن البجاوي قائد الدار ، رحمهم الله ، ولم تبق لي الا أمتعة البادية وكان أعيان قسنطينة قد اقترحوا علي قبل الحصار بكثير أن آمر باخراج الاشياء الثمينة ولكني اعترضت بشدة على هذا المشروع اقتناعا مني بان مقاومة السكان تكون اكثر ضراوة كلما ازدادت الاملاك التي يحافظون عليها . ولكي اكون لهم قدوة وحتى لا أثير أي غضب أعطيت أوامر صارمة بأن لا يخرج شيء من القصر وقلت للسكان : بما أنني اعرض كل ما عندي للعدو ، فلماذا تخافون على ثرواتكم فمصيرنا واحد ولا ينبغي ان يكون غير ذلك .

ولذلك فمن الممكن أن الغنيمة في المدينة ، كانت معتبرة .

(52) ــ غير ان الجيوش الفرنسية عجزت عن مطاردته . وقدر فالي الخسائر بمائة قتيل و500 جريح (المجلة الإفريقية ، نوفمبر 1937 ، ص 21) . ولكن هذه الارقام كانت أقل من الحقيقة بكثير ، اذ أن بريسون ، كتب سريا من الجزائر يوم 28 / 10 / 1837 الى وزير الحرب يقول : « كان زادنا الحربي قد نفذ عندما سطونا المرة الاخيرة ، ولو أن الهجوم ، الذي زعزعه انفجار لغم ، لم ينجح ، واستطاع العدو ان يرجع الجيوش الى مكان المدافع الصامتة ، وهو ما كاد أن يقع ، لهلك الاجناد كلهم » . (المحفوظات الوطنية بباريس ، ف 80 ، 1672) .

ولقد علمت ان اليهود ، على سبيل المثال ، قد اغتنموا أوقات الاضطراب والفوضى ، التي لابد منها أثناء جميع الهجومات ، ليستولوا على الاشياء الثمينة التي كانوا يعرفون أمكنتها الخفية . ومن جملة من نهبوا ، ابن عيسى فانه قد فقد كل ما يملك تقريبا . ولم أتأثر كثيرا بفقدان أملاكي ، كما اننا لم نتألم لذلك لان جنودي خرجوا سالمين وان شجاعتهم كانت فى مستوى الظروف القاسية التي فرضت علينا .

14

وفى الحين فكرت فى محو الهزيمة لان الله لا يضيع كليا الا الذين يهملون أنفسهم . لذلك استدعيت قادة القوم فاجتمعوا حولي وبعد أن استعرضت الموقف اقترحت عليهم تشكيل زمالة بجميع الذين خرجوا من المدينة ثم نقودها الى مكان أمين فى الجنوب ونبقيها فيه تحت حماية مشاتنا . أما نحن فنرجع فورا الى المدينة ونتمركز فى طريق عنابة بحيث نقطع حركة المرور . فنحن نعلم أن العدو خسر ، بالاضافة الى كبير الجنرالات ، عددا آخر من الضباط المعتبرين وان المؤن قد تكون نفذت وعليه ، فاذا استطعنا أن نتمركز فى طريق عنابة بحيث نقطع جميع الاتصالات

بالمكان الذي يمكن أن يبعث النجدات ، فانه يكون لنا أمل كبير في تحقيق النصر . وتمت المصادقة على مشروعي ، وكاد يدخل في حيز التنفيذ عندما صاح بوعزيز بن قانة قائلا : « ماذا تريدون أن تفعلوا : تبتعدون عن بلدكم وتتوجهون نحو الشمال اذن ، فأنتم لا تعلمون ان فرحات بن سعيد يقترب بسرعة من الزيبان . وفي الوقت الذي تحاولون فيه الدفاع عن قسنطينة ، فانكم تعرضون أنفسكم للطرد من منطقتكم . ولذلك يجب أن نسرع الى الصحراء ندخل عائلاتنا ومن اتبعنا الى المدن ثم نخرج متحدين ضد العدو الذي نخشى هجومه أكثر . فالفرنسيون لن يتقدموا ، بينما فرحات يزحف علينا . ومن ثمة يجب ان نبدأ بمحاربته ، وبعد ذلك نوحد قوانا ونهاجم الفرنسيين » . لم أستحسن هذه النصيحة ، ولكنه لم يكن لي أهل ، عدا ابنائي ، أقرب من بوعزيز فلم أكن اعتقد انه يستطيع أن يقترح على ما من شأنه أن يضرني . وعليه انضممت الى رأيه ولو ان الله هداني في ذلك الوقت ، لفهمت انه يريد جلبي الى الصحراء ليأخذ أموالي عن آخرها . ولكن اذا حكم القدر على شخص بالهلاك عمي بصره وبصيرته وصار يعتقد الخير فيما يؤدي الى الخراب . وأكرر ، لقد اتبعت رأي بوعزيز وكان ذلك هو مصابي الاعظم .

وفرحات بن سعيد هذا الذي أتيحت لي فرصة التكلم عنه بعد ، والذي تسبب عدوانه فى تغيير مشاريعي ، كان عدوا ومنافسا لبوعزيز الذي خلفه فى منصب شيخ العرب . فظل يبحث عن جميع الوسائل لقلبه ولاسترجاع النفوذ الذي كان له فى السابق . ولذلك كان قد اتحد مع ابراهيم ، وعندما انهزم هذا الاخير اتصل بجميع الذين يريدون تشويش البلاد . فكتب الى عبد القادر والي الفرنسيين . وأملا منه فى أن يكون حظ الفرنسيين أحسن فى هذه المرة على الرغم من هزيمتهم الاولى رأيناه يتقدم نحو قسنطينة . ولكنه لم يستعجل وبقي ينتظر على من تدور الدوائر . ولو ان الفرنسيين غلبوا لكان من المحتمل أن ينضم الينا ويطالب بجائزة . غير انني أريد أن أنصف فرحات فأقول : انه رجل بارود وصاحب ذراع . ولقد حاربني مدة سبع سنوات . فكان فى المعركة يقابل مائة وحده ويعتبر بوعزيز ، الى جانبه ، امرأة » .

وبعد أن صممنا الذهاب الى الصحراء توجهنا الى الجنوب . وكان ذلك بعد احتلال قسنطينة بيومين . وعندما كنت فى المكان المسمى الاصنام حمل الي أحد الفرسان العرب رسالة من الجنرال . قائد الفرنسيين . لقد كانت

قصيرة وتحتوي على العبارات التالية : « تعالوا اطلبوا الامان واستسلموا سريا سنبعثكم الى فرنسا » . كان هذا هو العرض الوحيد الذي قدم لي ، ولم أكن قادرا على قبوله فأجبت بالرفض . وبعد ذلك بثلاثة أيام جاءني شخصان آخران هما ابن العطار من قسنطينة والحاج الباي من عنابة . فرددا علي نفس العبارات مضيفين بأن أيدي فرنسا ممتدة الى جميع الانحاء وان لا مفر من الاستسلام بدون شرط . (53) وفى هذه المرة اضافا بأن الفرنسيين سيعاملونني بالاكرام الذي تتسم به هذه الامة العظيمة ، فأجبت بأنني : « أريد أن أستسلم، ولكن لا أحب أن يفرض علي الذهاب الى فرنسا ، يجب أن يترك لي الامر فى أن أتوجه الى بلد اسلامي أو الى بيت الله » . وعندما أبديت هذه الرغبة قال لي بوعزيز : « ماذا تفعل أتريد أن تنكث عهدا ضربته على نفسك ؟ ألم تقل انك ستصطحبنا الى الصحراء ؟ فلا تقبل هذا الاقتراح ، اذن . وضرب الله مرة أخرى ، على بصري غشاوة فأجبت المرسلين بالرفض المطلق .

(53) — على العكس ، فان فالي يذكر بأنه عرض على احمد أرجاع البايلك مقابل غرامة قدرها 100 000 فرنک ، وقد وجدنا مشروع اتفاقية فى هذا الصدد ننشره كملحق لهذه المذكرات .

وقبل احتلال قسنطينة بمدة قصيرة ، كان الحاجْ عبد القادر قد كتب الى العرب يخبرهم بأنه أبرم الصلح مع الفرنسيين الذين اعترفوا بسيادته على كامل انحاء البلاد ، وعليه يطلب منهم أن يتخلصوا من سلطاني ويدخلوا فى طاعته . « واذا لم تفعلوا ذلك ، فانني أثير عليكم الفرنسيين وفى وقت وجيز ستسحقكم قواتي وقواتهم » . ولم يكن لهذه الرسائل تأثير كبير على عرب قسنطينة ، ولم يستجب لعبد القادر غير فرحات بن سعيد الذي كان يعمل على استغلال جميع الفرص التي من شأنها أن تخدم مشاريعه ضد بوعزيز بن قانة . وتعين خليفة لعبد القادر فى الصحراء وأعطاه هذا الاخير رسائل اعتماد . ولكنه قبل التورط معه كليا واستعمال تلك الرسائل ، عزم فرحات على الذهاب الى ناحية قسنطينة التي تكون مسرحا لكثير من الامور الهامة ، وكما ذكرت ، عمل على أن لا يصل اليها الا عندما يتم النصر لواحد من الطرفين .

وبالفعل ، فانه لم يصل الا بعد مرور سبعة أيام على السلم ، ولما رأى انني متجه الى الصحراء حاول أن ينضم الى الفرنسيين وعرض عليهم اقتراحات فيما يخص التحالف . فطلب أن يعترفوا به كشيخ للعرب وأن يمدوه بالجيوش

ليحاربني ويحارب بوعزيز ، وقال لهم : انظـروا ، انني أتصرف فى سبعة نجوع من العرب بينما لم يبق مع بوعزيز سوى نجع واحد . واذا أعطيتموني جيوشا ، فانني سأنتهي معه وآتيكم برأس الباي أحمـد » . ولكـن ـ أجابه الفرنسيون ـ كيف تطلب المعونة وأنت تزعم انه لم يبق مع ابن قانة سوى نجع واحد وأنت تتصرف فى سبعة . فاذهب اليه ، اذن بكل ثقة ، وعندما تهزمه وتبرهن له على قـوة فرنسا ، فاننا نعطيك أكثر مما تطلب . أما الآن ، فلا تعتمد كثيرا على الجيوش الفرنسية » . امتثل فرحات لهذا القول ولاحقني ، وبعد ذلك بأيام كان لقاء خالـد بيننا ونصرني الله عليه نصرا مبينا . ثم واصلت طريقي الى الصحراء ، وفى منعطف من منعطفات الطريق وجد جنودي أنفسهـم وجها لوجه مع جنود فرحات الذين جاوءا يقطعون سبيلي معتقدين انهم أسروني . غـير انني ، وبدون أدنى تردد ، أمرت فرساني أن يحملوا ويكسروا الحواجز التي تعترضنا. ودارت المعركة حامية الوطيس ، فسالت الدماء من كل جانب وفقد فرحات ما يزيد عن ثلاثمائة من أجناده ما بين جريح وقتيل . وهكذا تخلصت من فرحات الذي اضطر ، عـلى الرغم من الشجاعة التي أبداها ، الى الفرار تاركا فى حوزتي كل ما كان يملك. ولجأ الى بلاد سوف بين الجريد وتوقرت.

15

وعندما وصلت الى مكان يكاد يكون آمنا ، كتبت الى السلطان محمود أعلمه بكل ما جرى . ولم أستطع الاحترام عن رفع شكاوي شديدة اللهجة من الاهمال الذي تركت فيه فقلت : « انظروا ، انني رفضت التفاوض مع الفرنسيين وظللت انتظر النجدات التي وعدتموني بها . انني لم أفعل شيئا دون استشارتكم والعمل بنصائحكم ، وها أنا الآن طردت من قسنطينة وأصبحت أتجول بين الاعراب . هل هذا هو جزاء ثقتي بكم وهل نفذتم ما وعدتموني به منذ سبع سنوات أليست طاعتي اليكم هي التي قادتني الى هذا الوضع المؤلم وهل تتركونني على ما أنا عليه. انني أخبرتكم وعليكم ان تفعلوا ما تريدون » .

وفى هذه المرة بعثت رسالة عن طريق تونس ، وكانت مصحوبة بأخرى الى الباي الذي استقبل رسولي بكل حفاوة واكرام وخصه بالضيافة اللائقة . ومما لاشك فيه أن تصرف الباي هذا لم يكن نتيجة حبه لي ، لاننا كنا تعادينا عدة مرات أثناء ولايتي : عندما احتجز الاعانة التي أرسلت الي وفى كثير من المناسبات الاخرى التي يبدي فيها غيرته من سلطاني . ولكن سبب الاستقبال الظاهري الذي خص

به رسولي هو انه كان ينوي الاستقلال عن القسطنطينية ويخشى أن يدعوني الباب العالي لاستبداله . وقد كان من السهل علي فى ذلك الوقت أن أثير البلد . وهكذا ، فان الباي أجابني على الفور وقال بأنه ما علي الا أن ألجأ الى تونس حيث يستقبلني كأخ شقيق ، اذا لم أعد أجد الامن فى بلادي فشكرته على حسن عواطفه ثم رفضت كل ما عرضه علي شخصيا واكتفيت بأن أوصيته خيرا بأعواني . وبعد ذلك قصدت المكان المسمى بوحصيف فى حدود التل ، وكان جميع العرب التابعين لي قد تعرضوا لخسائر فادحة جعلتهم يعيشون فى تقشف كبير . وعندما علموا بأن القموح تباع ، فى أيالة تونس ، بأسعار موافقة ، طلبوا مني أن أكتب الى الباي ليسمح لهم بشراء ما يحتاجون اليه من مؤن . ولما كتبت ، أعطى الباي فى الحين ، أمرا يسمح لهم بذلك ويعطيهم الاولوية على غيرهم . وفى الاجابة عن هذا الموضوع ، ألح الباي من جديد علي أن أتوجه لولايته .

ويؤسفني أن أقول هنا بأن الرجال الذين ذهبوا الى تونس لم يتصرفوا كما ينبغي . لقد اتبعوا نصيحة مفسدة أعطاهم أياها بوعزيز بن قانة . فنسوا أنهم لم يكونوا سوى ضيوف على هذا البلد وانهم فيه محظوظون ومخصصون

بالاولوية ، وراحوا ينتهكون واجبات الضيافة ويقومون بغزوة ضد زاوية عبد الكريم التي كانت مخزنا لحبوب كامل الشرق التونسي . وعلى اثر ذلك كتب لي كاهية الكاف يلومني على سلوك قومي ، فأجبته بأنني مستعد للتعويض وأمرت باجراء تحقيق حول قيمة المسروقات فوجدت انها تبلغ 80.000 ريال تونسي . وكتب لي الكاهية من جديد يطلب مني أن ألزم المذنبين بدفع هذا المبلغ ، ولكنني أخبرته بأنني لم أعد سوى حاكم مخلوع لا يملك أية سلطة تقريبا . ولكي لا يقال بأن قومي اقترفوا عملا سيئا ولم أصلح الخطأ ، اقترحت على الكاهية أن أدفع الثمن من خزينتي الخاصة . غير ان الكاهية أجاب بأنني لست مرغما على تقديم أي تعويض . ومع ذلك أخذت 50.000 ريال ووزعتها على المصابين . أما بوعزيز ، فقد كانت نيته ، عندما أعطى نصيحة فى مثل ذلك الخبث ، أن يثير علي باي تونس . لقد كان يريد الاجهاز علي ليأخذ ما كنت أملك . وبما انه لم يكن رجلا شجاعا ليفعل ذلك علنا ، فانه يستعمل جميع الوسائل لبلوغ هدفه ، ولقد كان ملهوفا على المال فضحى بكل شيء لاشباع رغباته ثم اني كنت رفضت فى ذلك الوقت أن أنزل عند طلباته ، والسبب فى ذلك هو ما يلى : « كان

عم الحسناوي ، فى القديم ، هو شيخ قبيلة الحنانشة (54) التي كنت مقيما عندها ، ولانه حاك مؤامرات ضدي ، حكم عليه بالاعدام واستبدل برزقي الذي أبدى لي كثيرا من الاخلاص . ولارضاء أسرة الحسناوي (55) عينت هذا الاخير كاتبا للشيخ . ولكن حقده علي اضطره الى التنازل عن منصبه ، فلجأ الى تونس أولا ، ثم ذهب الى يوسف فى عنابة دون أن يقطع اطلاقا الرباط بيني وبينه . وذات يوم طلب من بوعزيز أن يعينه شيخا على الحنانشة فى مكان رزقي ، ولهذا الغرض قدم له مبلغا كبيرا من المال وعلى الفور استجاب بوعزيز الى الطلب وجاء يرجوني أن أقوم بهذا التبديل . » ولكنني ــ قلت له ــ كيف أثق فى عدوي وكيف تريدني أن أخلع رزقي وقد كان دائما مخلصا لي . ان ما تشير به علي ليس من العدل فى شيء . » وقاومت طويلا ؛ غير انني كنت ، فى ذلك الوقت تقريبا تحت رحمة بوعزيز فاضطررت الى القبول . فعين الحسناوي وابتعد رزقي عني . لكنه عندما علم بسبب عزله قصد بن قانة ، بدوره ، ووعده

(54) ــ قبيلة كبيرة تمتد أراضيها من تبسة الى الاوراس . تستطيع أن تجند ما بين 2500 و 3000 فارس ، و 6000 جندي راجل .

(55) ــ تستطيع هذه الاسرة أن تجند أكثر من 500 فارس .

بالمال ان هو أرجعه الى منصبه ، وخوفا من أن أشك فى تصرفاته قال له : « اذهب الى الباي أحمد واقترح عليه أن يتخلص من الحسناوي ويأمر بقتله ثم يعين صهرك محمد بن علي شيخا على الحنانشة ، وسأكون كاتبا له ومستشارا . » لم يتردد بوعزيز أمام هذا الاقتراح وجاء يطلب مني تحقيق المشروع ، انني استنكرت عليه ذلك بشدة وقلت له : « كيف تشفع فى عدوي وتعمل على تنصيبه ثم تأتيني ، اليوم ، تطلب قتله ، وأنت تعلم انه نزل ضيفا علينا واستقبلته فى خيمتي ، واذا كنت قد عاقبت من خانني ، فانني لم أخن أحدا . » واغتاظ بوعزيز لهذه الاجابة فأشار على القوم بأن يغزوا زاوية عبد الكريم ليعزلني عن سلطان تونس . ولما انتبه غادرني ورجع الى الصحراء. أما أنا فقصدت الحراكته.

ومنذ ذلك الوقت استسلم بوعزيز الى الفرنسيين (56) ولكن بعد استشارتي . لقد كتب لي رسالة فى هذا الموضوع يقول فيها : « سأنضم الى الفرنسيين وأكون لك وسيطا عندهم ان سمحت . » غير ان ما جرى بيننا منعني من قبول

(56) ـ اعترفت فرنسا ببوعزيز كشيخ للعرب وخليفة على الصحراء ، فحارب حسان بن عزور خليفة الامير عبد القادر .

هذا العرض ومع ذلك فلم استنكر الاختيار الذي انتهى اليه . وهكذا تولى الحكم مكان فرحات ، بيد انه لم يمارس السلطة الا بعد ذلك بكثير .

أما أنا ، فبقيت عند الحراكته حوالي شهرين وبعد مرور عام على احتلال قسنطينة علمت أن الفرنسيين يعملون على تنظيم حملة ضدي ، وخرج الجيش ثم تمركز على مقربة مني وأرسل الي الجنرال الذي يقوده ، يطلب مني الاستسلام (57) فأجبته كما سبق أن فعلت ذلك مرارا ، بأنني كتبت الى القسطنطينية ، وانني أنتظر الرد . وظننت انني سأهاجم ، فحولت معسكري ليلا ، غير ان الفرنسيين لم يلاحقوني ورجعوا الى قسنطينة .

وعلى اثر ذلك انسحبت الى وادي ريغ حيث قضيت لشتاء ، وفى الربيع خرج طابور من قسنطينة وتوجه الى

(57) — المقصود هي حملة الجنرال نيقري التي وقعت ي ماي 1838 ، وتقول رسالة نيقري : « ان الاستسلام لكلي وحده هو الذي يمكن أن يمنعك من الهلاك الذي نتظرك ، وليس لك الا أن تثق فى شرف فرنسا واكرامها لشهورين فى كامل أنحاء العالم . بهذا الشرط أضمن لك لامن ولعائلتك وأملاكك . ولا فائدة فى أن تعرض علي شيئا خر ، فاني لن استمع اليه » .

المرتفعات . ولكنني ، قبل التكلم عنه ، يجب أن أسرد جميع المؤامرات التي دبرت ضدي فى تلك الاثناء . ان الذي يفقد الملك يكون كالاسد الذي يلفظ أنفاسه الاخيرة . ويصير أولائك الذين كانوا يخشون النظر اليه فى عهـد عـزه ، كالطيور الكاسرة تنقض عليه لتقتلع قطعة من لحمه .

16

علمت ان المسمى ولد يونس قد دبر خيانة ضدي بالتعاون مع أولاد سيدي يحي والزرالنه من رعايا تونس فكتب الى القائد الفرنسي الذي كان فى قسنطينة وقال له : « اعطوني 40.000 دورو أوزعها على الاعراب وآتيكم برأس الحاج أحمد باي . » ثم جاءني وذكر بأنه كتب الى الجنرال حاكم قسنطينة : ودعوته الى أن يخرج من المدينة مع جيوشـه وطلبت منه 40.000 دورو . وعندما يخرج ننصب له كمينا ونأخذ طابوره بأكمله . » وعندما سمعت هذا التعس يجرأ على التصريح بفمه، ويؤكد خطته الاجرامية التي كنت أعرفها من قبل ، قدمته الى المحكمة فحكم عليه وعلى ابنه بالاعدام، وعينت مكانه ابن أخته أحمد بن الزين . وبعد أيام قلائل توجه الجيش الفرنسي الى الحراكته ، فأرسلوا يستنجدون بي . وكنت فى ذلك الوقت ، مصابا بمرض شديد جعلني

أفكر فى اللجوء الى الجبل ، ولكنني لم أستطع مقاومة دعائهم ولم تسمح لي نفسي بالتخلي عنهم وهم يتعرضون للهلاك من أجلي . (58)

ثم تغلبت على الالم وذهبت اليهم . غير أن الفرنسيين كانوا قد سبقوني وقاموا بغزوة مريعة تم فيها أسر عدد كبير من الحراكته وفر الباقون . فاضطررت الى الانسحاب ، ولكن الفرنسيين لم يلاحقونا فرجعنا اليهم من الغد واسترجعنا جزءا هاما من القطعان .

وبعد هذه الحملة رجعت الى وادي ريغ حيث أقمت ، ولم تمض الا فترة حتى جاءني الشيخ مراد : شيخ الدرادة الذين هم من رعايا تونس ، وقضى الليلة ، كضيف عند أحمد بن الزين ، ولكن هذا الاخير قام بالليل وسرق له من جبيرته خاتمه الذهبي ثم كتب الى باي تونس يقول له : « اعلموا ن أالشيخ مراد جاء الى هنا يقابل الباي أحمد على غير علم منكم ويتآمر ضدكم ، والدليل على ذلك اني أبعث اليكم خاتمه الذي أخذته من جبيرته . » وفى الغد جاءني

(58) ــ المقصود هي حملة الجنرال قالبوا التي وقعت فى ربيع سنة 1840 ، وفيها فقد الحراكتة 000 80 راس من الاغنام والابقار .

مراد يشتكي من السرقة التي تعرض لها، فاستعلمت وتحققت من خيانة ابن الزين الذي لم يكن له هدف غير اثارة غضب الباي علي . ولذلك ألقيت عليه القبض ، وبعد التأكد من الخيانة تم الحكم عليه بالاعدام .

لم يكن هو الوحيد الذي تآمر ضدي ، وقد كنت مرغما على أن أعاقب بشدة جميع الذين شاركوا معه ومن جملتهم الزرالمة . ثم مر عام وأنا مقيم فى وادي ريغ ، وذات يوم جاء الزرالمة وأولاد يونس فى قوة معتبرة يرعون أغنامهم على حد قولهم ، ولكنهم أتوا فى الواقع للقيام بخيانة وللانتقام وقد كنت أخبرت بمشاريعهم قبل ذلك بأيام . لقد جاؤوا عند غروب الشمس ، وعندما هجمت عليهم وقتلت لهم 25 رجلا فروا من ميدان المعركة ، فلاحقتهم ولكن بلا جدوى .

ثم مر عام آخر دون أن يحدث شيء . وفى آخر السنة انتقلت من وادي ريغ الى منطقة الحنانشة حيث قضيت شهرين . وبعدهما توجهت الى جبل أوراس أجمع أفراد أسرتي وجميع الامتعة التي كنت أرسلتها الى هناك أثناء احتلال قسنطينة .

وفى هذه الاثناء خرج الي طابور فرنسي ، ولكنه حينما علم انني التجأت الى الاوراس رجع الى قسنطينة .

بقيت عاما فى هذا الجبل ، وذات يوم جاءني أولاد دراج يطلبون مني مصاحبتهم الى الحضنة . فقلت لهم : « انني موافق ولكن ينبغي أن يتبعني جميع القوم . » وهكذا انضموا الي واستطعت أن أرغمهم على المسير ضد أحمد بن الحاج ، خليفة الامير عبد القادر الذي كان فى بسكرة . فهاجمناه وأخذت له ، فى أثناء المعركة التي دارت بيننا ، 30 بندقية وقتلت له 40 من جنوده . والتجأ الباقون الى داخل المدينة وأحكموا غلقها بحيث انني لم أتمكن من الدخول اليها .

وكنت علمت ان أحمد بن الحاج كان يريد القيام بحملة ضدي ، وذلك بالاتفاق مع أولاد دراج . غير انني تصرفت بمهارة واستعملت ضده أولائك الذين أراد أن يسلحهم ضدي . وبعد هذه الحملة توجهنا الى الحضنة (59) حيث أقمت الى أن جاءتني رسالة من مسعود شيخ ريغة (60)

(59) ـ كان ذلك فى أوت 1841
(60) ـ ربما هي ريشة التي تقع فى ناحية ميلة .

يخبرني فيها بأن طابورا خرج يطلبني من سطيف ، وبأنه يجب أن أجمع أجنادي وأنضم اليه ، فوزعت 4000 بوجو على فرساني والتحقت بــه .

وعندما التقينا بالطابور الفرنسي فقدت ستة من رجالي وتسعة أحصنة . ثم انفصلنا ودخلت الى الحضنــة حيث قضيت أربعة أشهر توجهت بعدها الى أولاد سلطان وبقيت عندهم عاما ونصفا . وفى أثناء هذه الاقامة خرج من سطيف طابور ثان وتمركز عند أولاد علي فجمعت أولاد سلطان وسيرتهم اليه وقد دام القتال يومين ثم رجــع الطابور الى سطيف ولم أحضر المعركة . وبعد حوالي ثمانية أيام رجع الطابور ثانية فهاجمناه ولكن الفرنسيين تراجعوا فى أعمالهم. ولقد وقعت هاتان الحملتان فى الفترة التي توجه فيها ابن الملك (61) الى الصحراء بعد أن تعين على رأس مقاطعــة قسنطينة . وعلى اثر هذه الحملة رجع الى قسنطينة ، حيث قضى بضعة أيام ثم سير ضدي قبائل الاعراب والتلية .

وكانت قواتي تتكون من 700 فارس وجندي ومن أولاد سلطان ، وبعد حين طوقتنا الجيوش الفرنسية والاعــراب

(61) ـ الدوق دومال (أفريل 1844) .

الذين كانوا معها ، فتقابلنا مدة يومين بكل شدة وضراوة حتى انني أستطيع القول بأنها أدمى معركــة حضرتهــا ، حياتي ، ويعلم الله كم معركة شاهدتها منذ طفولتي ، وكان الفرنسيون قد شكلوا ستة طوابير ليصلوا الى قمة الجبل : ولكن نشاطنا كان متزايدا بحيث انهم عندما وصلوا الى منتصف المنحدر كررنا عليهم بشدة وعنف ، فأرغمناهم على العدول عن خطتهم والرجوع الى مركزهم .

وقد استفدنا فى ذلك اليوم من الامطار الغزيرة ومــن الضباب الذي بلغ من الكثافة حتى ان الرجل أصبح لا يرى جاره . وكانت أضرارنا أخف من أضرار العدو لاننا كنــا نعرف الميدان . وفى يوم السبت التالي عاد جيش الاعداء من جديد الى الجبل وتمكن من التمركز فى المكان المسمى بالبير قضى فيه ليلته ثم اجتاز الاوراس ودخل الى باتنــة حيث بات وتزود ، وبعد أن لف بالجبل بحثا عن منحدرات أسهل ، رجع ثالثة الى الاوراس . وقد لاحظت ان هــذه الهجومات الثلاثة وقعت فى ظرف خمسة عشر يوما ، ودائما فى يوم الاربعاء . وفى المرة الثالثة عندما صعــد الجيــش الفرنسي كنت فى مرض شديد قريبا من الموت ، ولم ينقذني الا اخلاص رجالي الذين حملوني على نعش كما يفعــل

بالجثة . وعندما أشتد القتال وضعت في غابة كنت أسمع منها جميع الطلقات النارية . ولكم آلمني انني لم أكن قادرا على المساهمةفي معركة سببها مصالحي ، وعز علي أن أبقى بعيدا عن الميدان ، وعندما تغلب الجيش الفرنسي علينا ، كنت على مقربة منه ، لا تفصلني عنه سوى مسيرة ربع ساعة . ولما كان الليل ، ورأيت ان الله لم ينصرني ، حملني أنصاري ومررت بجانب الجيش الفرنسي فكنت أميز الحرس تمييزا كليا . وسرنا الليل كله متجهين غرب البير . وفي الصباح اكتشف الاعداء آثارنا فلاحقونا . ثم حملت الى جبل متليلي حيث أقمنا ليلة ونهارا . وفي الغد توجهنا الى الدايا . وأثناء هذه الفترة كلها كان المرض قد اشتد بي الى درجة انني لم أكن قادرا لا على السير ولا على ركوب الخيل بل قطعت المسافة في نعش يحمله أعواني المخلصون على أكتافهم .

وبعد اقامة قصيرة في الدايا ، قصدنا بني فراج ، وعندما وصلنا اليهم قضينا الليلة عندهم وفي اليوم التالي دخلت الى قريتهم حيث مكثت بضعة أيام . ثم ذهبت الى المنعة(62) الى منزل ابن العباس فجمعت أمتعتي وأفراد أسرتي : ولا

(62) ــ قرية تبعد بحوالي 60 كيلومتــرا عن آريس في قلب الاوراس .

أظنني فى حاجة الى القول بأنني فقدت كل ما أملك أثنـاء هذا الفرار : أمتعتي ، أوراقي ، خيامي ، كل ذلك تقريبـا وقع فى حوزة العدو . لقد كنت شديد المرض ، فلم أتمكن من اتخاذ أي نوع من الاجراءات وكان المصاب عظيما .

وأقمت فى المنعة مدة عام تقريبا . وفى تلك الاثناء وجهت حملة ضد سكان وادي عبدي . (63) وعندما اقترب الطابور منهم بعث اليهم الجنرال يدعوهم الى الاستسلام ، لكنهم رفضوا الدعوة بشدة وأوفدوا يطلبـون معونتي ، فجمعت كل من كان حولي وانضممت اليهم . ولما وصلت رأيت انهم لم يستعدوا للمعركة ، وانهم كانوا مختلفين فيما بينهم . فقلت لهم : « انني لا أستطيع أن أحارب معكم ، ولا أريد أن أعرض نفسي الى هزيمة وان نصيحتي اليكم هي أن تستسلموا وتقولوا للجنرال انكم تقبلون عروضه . وانها لنصيحة أملتها علي مصالحكم . أما أنا فانني أترككم » ولكنهم أجابوني قائلين : « هذا مستحيل اننا لن نستسلم لاحد ، بل سنحارب ولن نترككم تنصرفون . » وأحسست فى داخل نفسي أن من الخزي والعار أن أتركهم ، فبقيت الى اليوم الذي وقعت فيه المعركة . ولكنهم ، عند احتدام

(63) ـ هي حملة الجنرال بودو ، فى ماي 1845

القتال ، تخاذلوا وفروا الى جهــات مختلفــة ورجعت الى المنعة . أما الفرنسيون فواصلوا سيرهم لينقضوا على التوابة وبني سليمان (64) ثم توقفوا فى المكان المسمى بالمدينة .

وقد صادف أن أحمد بن الحاج (65) ، خليفة عبد القادر ، كان متمركزا بجيشه عند التوابة . وحينما علــم بقــدوم الفرنسيين ارتحل وفر الى بلاد السوف . وبعد ملاحقــة دامت بضعة أيام رجع الفرنسيون الى المدينة حيث استراحوا فى هيئتين توجهت احداهما الى قرى التوابــة ، وســارت الثانية مع الوادي . ولما تعرضت الفرقة الاولى الى هجوم التوابة سارعت اليها الثانية دون أن يراها أحد وعندما وجد التوابة أنفسهم بين نارين تأكدوا من انه لم يبق لهم سوى الاستسلام فطلبوا الامان ، ولما رأيت كل ما جرى ، غادرت المنعة وتسلقت جبل أحمر خدو (66) .

---

(64) ـ قبيلتان مشهورتان مازالتا الــى يومنــا هــذا فى نواحي آريس .

(65) ـ هو محمد الصغير بن احمــد بن الحــاج قــائد مدينة سيدي عقبة سابقا ، وخليفة الامــير عبــد القــادر بالناحية فيما بعد .

(66) ـ فيما يخص اقامة احمــد بمنحــدرات الاحمــر خدو ، هناك دراسة كتبها ا . بابي عنوانها : قلعة كباش وواحة مشونش ، باريس 1894 .

وترك الجيش الفرنسي أولاد عبدي الى بيت ابن العباس حيث كنت مقيما . وبعد الاستقصاء علم الفرنسيون انني فى جبل أحمر خدو . فاستراحوا بضعة أيام ثم انقسموا الى فرقتين توجهت احداهما الى بني فارح ثم الى باتنة . ورجعت الثانية الى المدينة تلاحق أحمد بن الحاج ، وظلت تطارده الى أن وصلت مكانا يقع بين الخنقة والتوابة ، وهو مكان لا توجد فيه مياه . ولذلك تعذب الجيش كثيرا ومات عطشا عدد كبير من الجنود . ثم قصدت الفرقة الخنقة ومنها توجهت الى جبل العمامرة . وهنا تفرق الاجناد ورجعوا الى ثكناتهم . أما الامتعة التي بقيت فى المدينة ، فانها حملت الى قسنطينة بواسطة العربي بن ضياف .

18

أما أنا فقد استقريت فى جبل أحمر خدو وقضيت فيه حوالي عامين . وذات يوم كتب لي القائد الفرنسي فى بسكرة يقول بأن من المستحسن أن نضع حدا للعداوة القائمة بيننا . وتبادلنا عدة رسائل أدركت على اثرها أن السلم محبب عند الله وارتحت الى الاقتراح .

ثم كتب لي قائد باتنة فى نفس الاتجاه ووعدني باستقبال صادق وبالامان ، كما ذكر بأنه سيحبب لي سلطان فرنسا

التي تعيد الي املاكي ومكتسباتي ، وامتلأت نفسي حبورا لهذا الوضع الجديد كما انني كتبت عددا من المراسلات فى هذا الصدد .

وبعد ذلك بأيام قليلة خرج قائد باتنة فى طابور معتبر وقصد بني وجانة . فأرسلت اليه أحد أعواني المخلصين ، وهو الوحيد الذي رضيت باستعماله فى مفاوضات بمثل هذه الاهمية . ولكنه أصيب بمرض خطير ، ولكي لا أطلع شخصا آخر على سر استسلامي الى الفرنسيين ، انتظرت شفاءه لمواصلة المساعي التي كنت بدأتها . ولقد كان من اللازم أن أكتم السر ، لان العرب ما كانوا يتركونني أنفذ مشروعي ولربما اغتنموا هذه الفرصة للاجهاز علي .

وهكذا ارسلت الى حاكم باتنة من كان يحظى بكامل ثقتي ، وطلبت منه أن يبعث لي رجلا يمكن أن أتفاوض معه بصفة نهائية ، وأن يبلغني ما يريده بالضبط . وبعد يومين جاءني الرسول وسرني كلامه . ثم أفهمته بأنه ينبغي المحافظة على السرية الكاملة ، وأن ترسل جيوش تحاصرني من كل جهة حتى لا تبقى فكرة المقاومة عند العرب . وعلى اثر ذلك انسحب ليعود بعد التشاور مع من أرسله ، وقد ارتحت

كل الارتياح عندما رأيت ان اقتراحاتي قد قبلت وفى سرية طلقة أمرت بالاستعداد للرحيل . فاستعدت أسرتي وتوجهت شخصيا الى مكان عين لي مسبقا ، وكنت أعلم انني التقي يه بقائد باتنة الذي جاء على رأس جيش عرمرم . (67)

وبالفعل لقد وجدته ، وبمجرد ما وصلت أسرع الي واستقبلني بحفاوة . ثم كرر الوعود التي كانت قد أعطيت لي ، والتي دفعتني الى الاستسلام ، وهي استرجاع أملاكي ومكتسباتي الخاصة ، والسماح لي بالذهاب ، تحت رعاية فرنسا ، الى أرض اسلامية .

ولو انني لم أثق كل الثقة فى تنفيذ هذه الاتفاقيات لهربت ، وقد كان فى وسعي أن أفعل ذلك بكل سهولة . وعليه ، فانني جئت الى الفرنسيين راضيا تحدوني ارادة صادقة فى وضع حد للحرب الطويلة التي ظلت قائمة بيني وبينهم ، وذلك بابرام اتفاق متين وأمان مشرف .

ولم تدم المقابلة الاولى مع قائد باتنة الا فترة وجيزة

(67) ـ بعد مفاوضات طويلة ، استسلم الباي يوم 5 جوان 1848 الى الرائد دوسان جرمان الذي سيقضي عليه الثوار فى الزعاطشة سنة 1849 .

توجهنا بعدها الى بسكرة حيث استقبلت بحفاوة وامتيــاز محاطا بالاحترام والتبجيل . واقمت هناك ثلاثة أيام أتمتع بنفس الاستقبال ثم ذهبنا الى باتنة ، وقد اجتهد القائد في أن يسعد أوقاتي التي أقضيها معه . ووعدني ، باسم فرنسا، الصدق والامان وتحقيق ما أصبو اليه . لقد امضينا يومين معه وفي اليوم الثالث أخذنا الطريق الى قسنطينة .

وفي أثناء الطريق استحوذت علي أفكار متعددة : انني أذهب بلا أملاك ولا قوة الى المدينة التي رأتني سيــدا في أوج عزتي وحيث مارست سلطة السيادة . ولكن الله كيف نفسي وتجلت ارادته . وأي انسان يستطيع الافلات من أيدي القدر فسبحان الله وجل جلاله .

وعندما اقتربنا من قسنطينة خــرج أكابــر المقاطعــة لاستقبالي . ومما لاشك فيه انهم أحسوا بالشعور الذي كان يغمرني ، فأسرعوا للتخفيف مما كان يثقل كاهلي وذلــك عندما جاؤوا بعدد من الفرسان توسطتهــم ودخلت الــى المدينــة .

وهناك أيضا . حظيت باستقبال رائــع ، وان سكــان قسنطينة لم ينسوا أبدا بايهم القديم ، ومن الواجب علي أن

أذكر هنا ، وكلي عرفان بالجميل ، انني أثنـــاء الفترة التي قضيتها فى المنفى ، اتصلت من جميع السكان ـ فقراء كانوا أم أغنياء ـ بتذكار خالد : فبعضهم أرسل لـــي الملابـــس والاغذية والعسل والزبد والفواكه ، والبعض الآخر بعث لي ، وفقا لثروته ، عددا من منتوجات مصانعهم كالاحذية والجزامى والتلاليس وغيرها ... وقد قام الجميع بانجاز ما كانوا يعتبرونه واجبا نحو ملكهم ، وان عددا منهم كـــان يرسل لي ما أحتاج اليـــه (68) .

لم نبق فى قسنطينة الا ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابـــع أخذنا طريقنا الى سكيكدة حيث استقبلت بحفاوة بالغة . وانتظرنا فيها يومين قدوم المركب البخاري الذي أقلني الى مدينة الجزائر . وقد أولانا قائد هذه الباخرة ـ أنا وجميع أفراد أسرتي الذين اصطحبوني ـ كل عناية ورعاية . وبعد ابحار دام يومين وصلنا الى ميناء الجزائر ، وكان ذلك يوم الثلاثاء 17 رجب سنة 1264 . وفى هذه المدينة ، أيضـــا

(68) ـ ان السلطات العسكرية المحليـــة لم تفهم هـــذا الشعور ، وراحت تلقي القبض على من اظهروا عطفهم على بايهم القديم ، وقد اشار مدير الشؤون العربية الى المغالاة فى التشدد ، وذلك فى رسالة كتبها الى وزير الداخلية يوم 7 جـوان 1848 .

استقبلت بامتياز ، وخصصوا لي دارا استطعت أن أسكن فيها مع أسرتي وخدمي (69) ثم قدمت الى الوالي العام الذي اسمعني ، باسم فرنسا ، عبارات فى مستوى هذه الامة العظيمة أعزها الله لانها تستحق ذلك .

واني الآن ، أنتظر انجاز الوعود التي أعطيت لي ، وكلي ثقة فى الله وخضوع لارادته (70) .

---

(69) — خصصت له منحة سنوية قدرها 12 000 فرنك ومات فى الجزائر سنة 1850 . ويوجد ضريحه داخل زاوية سيدي عبد الرحمان . وهكذا ، فان فرنسا لم تنجز وعودها وارغمته على البقاء فى مدينة الجزائر تحت رقابتها .

(70) — وفى نسخة اخرى جملة اخيرة تقول : « احمد الله على انه سلط علي عدوا فى مثل هذه القوة وهذا الكرم » . (المحفوظات الوطنية بباريس ، ف 80 ، 1673 ، النسخة الثانية) .